الفصل الثانى

علم الاجتماع فى القرن التاسع عشر

بداية التجسيد الايديولوجى لمشكلة النظام

مقـــــدمة :

يحاول هذا الفصل الربط بين الفكر السوسيولوجى والواقع فى القرن التاسع عشر بمعنى محاولة استقصاء العلاقة بين التحولات البنائية والفكرية وبين ما قدمه علماء الاجتماع تجاه هذه التحولات ونحن اذ نفعل ذلك فاننا ندرس رد فعل علماء الاجتماع فى القرن التاسع عشر تجاه مشـــكلة النظام العام . فالتحولات البنائية هذه خلقت حالة من القلق لدى الكتاب المحافظين لانهـــا هددت دعائم النظام القائم داخـــل مجتمعاتهم . ومن ثم صـــبوا من أفكارهم ما يضفى عليه طابعا متوازنا قائما على روح الجماعة دون الفرد . ولقد تأثر علماء الاجتماع ـــ خاصة فى فرنسا ـــ بما كتبه المحافظون فى وقت كانت التحولات البنائية فى المجتمع الأوروبى لاتزال قائمة تصـــب اعينهم . ومن جماع الاثنين كون علماء الاجتماع فى القـــرن التاســـع عشر آراءهم ونظرياتهم ، ومن خلال الانشغال بمشكلة النظام والميل الى المذهب المحافظ دون المذاهب الاخرى جاءت بداية علم الاجتماع بداية **محافظة** بالضرورة .

لهذا فسوف يسير هذا الفصل على النحو التالى : نقـــدم فى البداية عرضا للجذور البنائية والفكرية لعلم الاجتماع فى القـــرن التاســـع عشر . ونعقب ذلك باستعراض بعض آراء كونت ودوركايم وفيبر محاولين قـــدر استطاعتنا أن نكشف منها بعض عناصر النظام الاجتماعى العام الذى فسرنا مفهومه فى الفصـــل الأول . وكيف كانت آراؤهم رد فعل لأزمة الاحـــداث والتحديات التى تشكلت من خلال التغيرات فى النظـــام الاجتماعى العام .

فمهما تكن أفكار هؤلاء العلماء محايدة فى نظر العالم أو المنظر ، فانها لايمكن أن تنفصل عن أصولها الأخلاقية والصراعات الفكرية والسياسية على نحو ما يقول نيسبت (١) .

ولهذا فاننا سنشير دائما فى أثناء الحديث عن هؤلاء العلماء الى علاقتهم بالتيارات الفكرية القائمة سلبا أو ايجابا فى حوار يدور على ثلاثة مستويات متفاعلة نعيد تأكيدها :

١ ــ مستوى الفكر السوسيولوجى المجرد والموجه نحو فهم الواقع .

٢ ــ مستوى الواقع الأمبيريقى الذى يفسره هذا الفكر .

٣ ــ التيارات الفكرية والأيديولوجية التى تغلف هذا الواقع وتكون أساسه الفوقى .

اولا : الجذور البنائية والفكرية لعلم الاجتماع فى القرن التاسع عشر :

كثيرا ما يوصف علم الاجتماع بأنه « علم الأزمة » (٢) . ويعكس هذا الوصف جانبا كبيرا مما نريد أن نستخلصه من هذه الفقرة . ويعنى ذلك أنه ظهر من خلال الأزمات الثقافية والاجتماعية التى صاحبت اختفاء النظام القديم

---

(١) Robert Nisbet, **Sociological Tradition**, op. cit., p. 19.
ويذهب نيسبت الى أبعد من ذلك حيث يسم هؤلاء العلماء وغيرهم من علماء القرن التاسع عشر بأنهم فنانون . فأفكارهم لم تكن حلا علميا لمشكلات بعينها ولكنها كانت نتيجة لعمليات فكرية مثل التخيل ، والرؤية ، والحدس بحيث تحوى الجانب العملى والفنى على حد سواء . لقد تأثر كل منهم بأفكار معينة سابقة عليه ثم صاغ أفكاره بطريقته الخاصة . وهذا فى نظر نيسبت ما يفصل بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية من حيث أن الأخيرة تعكس التراكم الذى يضيف فيه العالم دون أن يردد نظريات سابقية . المرجع السابق ص ٢٠ .

(٢) Bottomore, **Socioogy as Social Criticism**, George Allen and Unwin Ltd., London, 1975, p. 13.

وظهور الرأسمالية الصناعية ، والتى صاحبت نشأة تيارات سياسية جديدة ثائرة على النظام القديم . واختفاء النظام القديم وظهور التيارات السياسية الجديدة الثائرة على النظام يشير الى تحولات اقتصادية وسياسية لم تتم فى فراغ ، وانما أذكتها ثورتان غيرتا وجه أوروبا فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، ومايزال تأثيرهما عالقا بالفكر السياسى والاجتماعى والاقتصادى وما يقابل ذلك من مستويات امبيريقية حتى يومنا هذا : الثورة الصناعية والثورة الفرنسية . فقد كانت التغيرات التى أحدثتها كل ثورة من هاتين الثورتين عنيفة الى حد بعيد . فكل منهما ذات طبيعة فجائية ، وأحدثت هذه الطبيعة الفجائية تناقضا بين القديم والجديد أو بين الحاضر والماضى بحيث يمكن أن نقول ان أيا من هاتين الثورتين يعد اسطورة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى(٣) .

بالرغم من أن الثورة الصناعية كانت ثورة انجليزية فى المحل الأول ، الا أن تأثيرها كان ضافيا على أوروبا كلها . فقبل أن تنتشر كلمة « الثورة الصناعية » نفسها كان المفكرون فى المانيا وفرنسا يتحدثون عن النزعة الفردية — التى أذكتها الثورة الصناعية — والتى أدت الى قلب المجتمع الانجليزى راسا على عقب . كما ان كتاب آدم سميث Smith المنشور عام ١٧٧٦ قد أعطى تحذيرا مسبقا لما ستكون عليه أمور الثورة الصناعية فى أوروبا (٤) .

ولكن ما هى التحولات التى أحدثتها الثورة الصناعية والتى كان لها ذلك التأثير على الفكر ؟ يحصر روبرت نيسبت Nisbet هذه التحولات فى خمسة جوانب رئيسية (٥) . تغير ظروف العمل ، وتحول الملكية ، وظهور المدينة الصناعية ، والتحولات التكنولوجية وظهور نسق المصنع فيما يتعلق بظروف الطبقة العاملة ، فلأول مرة فى تاريخ أوروبا تصبح الطبقة العاملة موضوعا للاهتمام الأخلاقى والتحليلى وذلك بسبب ما أصابها من تفكك وما طرا على ظروف العمل من تغير . فقد تدهورت ظروف العمل ، وبدأ العمل ينفصل عن الاطر القديمة التى نشأ فيها وهى الطائفة والقرية والأسرة

---

(٣) Nisbet, Sociological Tradition op. cit., p. 22

(٤) Ibid., p. 24.

(٥) Ibid., pp. 25—29

وتقلصت مكانة العامل العادى . كما أن النظام الجديد قد حطم المزارعين الصغار كلية بحيث ظهر الفرق جليا بين السادة والعبيد . أما الملكية فقد أصابها التفتت وضعفت دعائمها . فلقد كانت الملكية من الأسس التى لايمكن الاستغناء عنها لقيام الأسرة والكنيسة ، والدولة ، وكل الجماعات الأخرى فى المجتمع . ولكن الثورة الصناعية حطمت هذا الأساس واظهرت آفاقا جديدة من الملكية : مثل الملكية الصناعية ، والنمط المجرد وغير المجرد من الملكية والذى يمثله المشترون والبائعون فى الأسواق ، والتى ظهرت فيها شخصية المضارب Speculator . وامتد تأثير الثورة الصناعية الى المدينة فقد ادى ازدياد الحضرية Urbanism الى اضطراب المدينة وثقافتها مما أثر على الظروف السيكولوجية للقاطنين بها ، وجعلتهم يعيشون حالة من الاغتراب أو الانعزال الفكرى . أما الموضوعان الآخران (التكنولوجيا ونظام المصنع) فهما مترابطان أيما ترابط . فلقد كان للتكنولوجيا ونظام المصنع آثار جسام على العلاقة بين الرجل والمرأة وعلى تفكك العائلة التقليدية ، والانفصال الثقافى بين المدينة والريف . ليس من الغريب اذن أن يذهب بعض الباحثين الى أن الثورة الصناعية لم تكن صناعية من حيث أن آثارها ونتائجها لم تقتصر على اطار الانتاج الصناعى وحدة بل امتدت الى كل جوانب المجتمع . فقد كان لابد من توفر كثير من الشروط والظروف الاجتماعية والقانونية (مثل الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، وتحرير الأيدى العاملة ، وتحلل نظام الطوائف القديم) قبل أن تقوم للنظام الراسمالى قائمة(٦) .

فقد حطم التطور الصناعى الحواجز والضوابط القديمة ، وخلق مشاكل جديدة مثل الفقر والأزدحام ، وسوء الأحوال الصحية فى المدن السريعة النمو وتفكك العائلة من خلال تشغيل المرأة والأطفال فى المصانع (٧) .

---

(٦) محمد الجوهرى ، **مقدمة فى علم الاجتماع الصناعى** ، دار الكتب الجامعية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٧٥ . ص ٩٩ — ١٠٠ .

(٧) T.B. Battomore, **Critics of Society**, George Allen and Unwin Ltd., London, 1969, p. 14.

ويذهب بوتومور الى أن الثورة الفرنسية ذاتها قد انبثقت كرد فعل لتأثير الثورة الصناعية على المجتمع حيث خلقت هذه الثورة حركة احتجاج واسعة النطاق بلغت ذروتها فى الثورة الفرنسية .

ويضيف جولدنر أن الثورة الصناعية فى نهاية القرن الثامن عشر قد خلقت موقفا جوهريا بالنسبة للدور النسبى للجوانب الأخلاقية وغير الأخلاقية فى تحقيق التضامن الاجتماعى . فالتكنولوجيا الجديدة قد أدت الى تعاظم دور الجوانب غير الأخلاقية . وحدوث تغيرات تكنولوجيـــة مستمرة وعاجلة يعنى أن التغيرات قصـــيرة المدى والتى تحدث لاعـــادة التكيف مع التغيرات التكنولوجية البسيطة لم تعد تكفى وتسبب ذلك فى احـــداث فجوة أو ثغرة بين المصادر التكنولوجية والأخلاقية التى تحقق التضـــامن فى المجتمعات الصناعية (٨) .

أما الثورة الفرنسية التى تأججت عام ١٧٨٩ فقد وصل تأثيرها على المجتمع الأوروبى الى الحد الذى ذهب معه البعض بأنها ثورة من عند الله . ويذهب روبرت نيسبت الى أنه باستثناء الثورة البلشفية فى القرن العشرين فليس هناك حادثة أثارت العاطفة وأشعلت الفكر وكانت الأساس للكثير من الآراء والاجتهادات فيما يتعلق بالانسان ومستقبله غير الثورة الفرنسية (٩) . ولاتقل الثورة الفرنسية عن الثورة الصناعية فى تحطيمها للمعتقدات والمشاعر التقليدية . بل ان الثورة الفرنسية تحقق لها ما لم يتحقق للثورة الصناعية حيث وجدت انصارا واتباعا جعلوا منها أكبر ثورة ايديولوجيـــة فى تاريخ الغرب ، الى جانب أنها كانت تملك عنصر المفاجأة والانتشار الدرامى الواسع النطاق والذى لم تحققه الثـــورة الصناعيـــة الا على استحياء . والطابع الأيديولوجى للثورة الفرنسية هو الذى جعل لها كل هذا التأثير ، ولقد كان الجانب الأيديولوجى واضحا فى اعلان حقوق الانسان ، لقـــد ارتبطت هذه الثورة بتغيرات عميقة الجذور فى كل شئون الحياة ، فى السياسة والقانون وحقوق الملكية والدين (١٠) . فقد قبل الثوار دون تحفظ مبادىء عصر التنوير وحاولوا ان يعيدوا تنظيم المجتمع وفق مبادىء عقلية خالصة (١١) .

---

(٨) A. Gouldner, The Coming Crisis of Western Sociology, op cit.,

(٩) Nisbet, Sociological Tradition, op. cit, p. 22

(١٠) Ibid., pp. 30—35.

(١١) Irving Zeitlen, Ideology and The Development of Sociologicaal Theory, Prentice Hall and indian Private Limited, New Delhi, 1969, p. 35.

ويشير جولدنر الى ان الثورة الفرنسية قد خلقت طبقة وسطى طورت مبدأ المنفعة فى صراعها ضد المعايير الاقطاعيـــة والادعاءات الارستقراطية للنظم القديمة البالية ، حيث كانت حقوق الفرد تتحـــدد من خـــلال المكانة ، والطبقة التى ينتمى اليهـــا ، والمولد ، والجمـــاعة القرابيـــة ، اى فى ضوء « الانتماء » وليس فى ضوء « الانجاز » مقابل ذلك بدأت الطبقـــة الوسطى الجديدة ، تضع ذوى الكفاءات والمهارات ، والقدرات المكتســـبة من خلال الانجاز الفردى ، بدأت تضعهم فى مراتب عالية . فمعيار المنفعة عند هذه الطبقة يعنى أن المكافآت يجب ان تمنح للأفراد حسب اسهامهم وعملهم الفردى . فمقدار فائدة الافراد تحدد الى درجة كبيرة من خلال المكانة التى يرتفعون اليها والسلطة التى يأخذون بزمامها ، فتلك أمور لايمكن اليوم أن تحددها الامتيازات . وهكذا نجد الأب سايز Abbe Sieyes يعلن عشـــية الثورة الفرنســـية « فلتحطم كل النظم ذات الامتيازات الخاصـــة ، فالأمة الآن تستطيع أن ترتفع فوق هذه الامتيازات وتتجاوزها .. والطبقة ذات الامتياز تعتبر بالتأكيد طبقة غريبة عن الأمة لأنها لا تفعل شيئا» (١٢) . بل حدث أن اتهم المناضلون والثوار اليعاقبة أعضاء الطبقة الوسطى الأغنياء بأنهم يستفيدون من الدولة وانهم كسالى لا عمل لهم (١٣) .

واذا ما جمعنا تأثير الثورتين فى شكل عمليات عامة ترتبط فيما بينهـــا نخرج بثلاث عمليات اساسية هى (١٤) :

١ ــ نمو الفردية Individualization وتعنى فصـــــل الأفـــراد عن الأبنية الجماعية : الطائفة ، والجماعة ، والكنيسة والروابط القرابية بصفة عامة . فقد أصبح المجتمع مجتمعا آليا ، يتكون من حشود متفرقة من التجار والبائعين والمشترين والعمال .

---

(١٢) A. Gouldner, op. cit., pp. 62—63.

(١٣) Ibid., p. 63

(١٤) Robert Nisbet, Sociological Tradition, op cit., pp. 42—43.

٢ ــ التجـــريد Abstraction وهي عملية ترتبط بالقيم الأخلاقية التى أصبحت أكثر تجريدا : تقوم على العلمانية والنفعية ، كما بدأت تنفصل عن الأسس الثقافية التقليدية التى منحتها تميزا رمزيا على مر العصور . لقـــد أصبحت قيمـــا مجردة بعيدة عما هو واقعى . وبرغم أن البعض يفسر ذلك على أنه تقدم تكنولوجى ، فان البعض الآخر يفسره على أنه انحدار ثقافى .

٣ ــ نمو الاتجـــاه نحو العمومية generalization وهى العمليـــة التى من خلالها امتد الفكر الانسانى ليشمل الأمة بأسرها بل ليشمل النطاق العالمى بأسره . فقد تحرك من الأسرة والجماعات المحلية الى الامة وبدأ يتجه الى مناقشة مفهومات عامة مثل الديمقراطية ، ويكون رؤية واضـــحة عن النظام العالمى .

ثانيـــا : الجذور الفكرية :

اذا كانت هذه هى التغيرات البنائية التى ادت اليها الثورتان الصناعية والفرنسية فهل اثارتا اهتمامات فكرية ؟ من باب الاجترار فقط ان نسأل هذا السؤال . فما أوردنا كل هذه التغيرات البنائية التى اصابت المجتمع الأوروبى من جراء الثورة الفرنسية والصناعة الا عن اقتناع بأن هذه التغيرات قد ولدت من الأفكـــار ما أثرى الفكـــر فى القـــرن التاسع عشر ، وكانت قمة هـــذا الثراء الفكرى انبثاق علم الاجتماع على ما صاحب هذه النشأة من دفاع عن النظام القائم وحصره داخل حدود الاتجاه المحافظ . ولكن كيف حدث ذلك ؟ هذا هو السؤال الهام .

هنا ننتقل من دراسة الجذور البنائية الى الجذور الفكرية لانبثاق علم الاجتماع . لقد كانت التغيرات التى أحدثتها الثورتان مجالا لجدل كثير من جانب الراديكاليين والليبراليين والمحافظين . واذا كانت الكلمـــات تنطق ببراهين أعلى صوتا من كل الوثائق على ما يذهب هوبسباون Hobsbawn فان الفترة التى امتدت من الربع الأخير من القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر تعد من أغنى الفترات فى تكوين الكلمة فى التاريخ . نستوعب هذه الحقيقة جيدا اذا ما اخترنا عينة صغيرة من المفاهيم التى اخترعت فى هذه الفترة أو عدلت فى ضوء معانيها الحاضرة . من هذه المفاهيم : الصناعة ، والصناعى ،

والديمقراطيـــة ، والطبقة ، والطبقة الوسطى ، والأيديولوجيـــا ، المثقف والنزعة العقلية ، والجماهير ، والنزعة التجارية ، والبروليتاريا ، والنزعة الكلية ، ونزعة المســـاواة ، والليبرالى ، والمحافظ ، والعـــالم ، والتفعى والبيروقراطية والرأسمالية ، والأزمة .. وغير ذلك كثير (١٥) .

تكمن جذور الاتجاه الراديكالى فى فلسفة عصر التنوير فى القرن السابع عشر . لقد ربط فلاسفة هذا العصر بنجـــاح بين التجربة والعقـــل فى حل مشاكل الانسان . فالكون فى نظرهم محكوم بقوانين مترابطة ، ويمكن ان يتحول الانسان والمجتمع الى الأحسن من خلال تنظيم البيئة الاجتماعيـــة والسياسية وفق هذه القوانين . ان الحركة الفلسفية فى هذا العصر التى بدأها روسو وهيوم عبرت عن تحول من التأكيد على أهمية الكون الميكانيكى الى التأكيد على الطابع الخلاق للشخصية . فروسو انطلق الى حد ما من موقف مثالى ، وقد كان أكثر ايمانا من معاصريه باعادة بناء المجتمع على مبادىء عقلية مجردة . كما أن الارادة الأخلاقية الداخلية والوعى كانت من الأشياء الهامة ـــ فى نظره ـــ فى تحرير الانسان . أما ديفيد هيوم فقد أدى فحصه النقدى لقضايا هذا العصر الى ابراز الدور الخلاق للعقل ، والى رفض الفهم الميكانيكى الذى يعد طريقة فى التفكير مستهجنة تفتح الطريق أمام الكثير من الاجتهادات . وقد كانت آراء روسو وهيوم هى الأساس الذى قامت عليه فلسفة كانت العقلية (١٦) .

هذه الآراء هى التى أذكت الثورة الفرنسية ، ومن ثم تمسك الثوار بها واتخذوها دعامة لتقويض النظام القديم وبناء نظام جديد يمجد دور العقل ودور الفرد ويحلله من روابطه القرابية والاجتماعية . وهى بهذا خلقت جيلا جديدا من الراديكاليين يحيى أفكار عصر التنوير . من هؤلاء على سبيل المثال الانجليزى وليم كوبت Cobett ولكن ما يفرق بين راديكالية جيل الثـــورة الفرنسية وراديكالية عصر التنوير ان تلك الأخيرة كانت مرتبطة الى حد كبير

---

(١٦) Zeitlen, Ideology and the Development of Sociological Theory, op. cit., pp. 36—37.

بالاطار الدينى . صحيح أنه كانت هناك اشارات الى الفقر والمعاناة ، ولكن هذه الأشارات كانت تظهر فى صورة دينية . أما الخط الرئيسى لراديكالية القرن التاسع عشر فقد كان علمانيا . واذا كانت الرغبة فى الخلاص لم تختف ، فقد اختفت على الأقل صورتها المسيحية . فقد ظهرت رغبة ثورية فى الخلاص نبعت من الثقة فى القوة المطلقة التى يمكن أن تحرر الانسان من مظاهر عدم المساواة (١٧) ولكن أيا كان جوهر الخلاف بينهما ، فان كلا منهما قد أولى أهمية كبيرة لدور العقل ودور الفرد وعمله الخلاق ، لا دور الجماعة وما تفرضه من روابط وسلطات قائمة على المكانة الموروثة وليس الانجاز . والثورة فى نظرهم هى المصدر الأساسى للحرية . ومن خلال هذا الفكر الراديكالى ظهرت المذاهب الاشتراكية التى اخذت تتطور حتى يومنا هذا .

أما الليبرالية فانها تنادى باستقلال الفرد وحريته وحقوقه السياسية والمدنية والاجتماعية . ويختلف الليبراليون فيما بينهم من حيث هذه الحريات فالليبراليون الانجليز يهتمون بتحرير الانتاجية الاقتصادية من ربقة القانون والعادات ، أما الليبراليون فى فرنسا فانهم يهتمون اساسا بتحرير الفكر من النزعة الاكليريكية . ولكن بصرف النظر عن هذه الاختلافات فان الليبراليين يتفقون على عدة مبادىء منها (١٨) :

أولا : قبول النظام الأساسى للدولة والاقتصاد القائم ، فهم لايرون فى الثورة المصدر الأساسى للحرية ، بالرغم من تأييدهم لها .

ثانيا : الاعتقاد بأن التقدم يعتمد على تحرير عقل الفرد وروحه من الروابط الدينية والتقليدية للنظام القديم .

يتضح من ذلك أن الليبراليين فى القرن التاسع عشر قد صاروا — مثلهم مثل الثوار تماما — على نهج علماء عصر التنوير فى اعلاء الفردية ذات الطبيعة المستقلة . ورغم اهتمام بعضهم بالنظم والتقاليد مثل أنصار النزعة

---

(١٧) Nisbet, Sociological Tradition, op. cit., p. 11.

(١٨) Ibid, p. 10

المحافظة تماما ، الا أن هذا الاهتمام يرتبط بالدرجة التى تدعم بها هذه النظم والتقاليد النزعة الفردية . فاهتمامهم الاساسى كان منصبا على حرية الفرد وليس على السلطة الاجتماعية . واذا كان الراديكاليون قد اهتموا بأمور السياسة والعمل السياسى أكثر من الليبراليين ، فان الاثنين يتفقان فى تأثر كل منهما بأفكار عصر التنوير ، وفى الاعلاء من شأن الفرد العاقل المستقل ذاتيا . أن كلا منهما قد حاول أن يعيد صياغة النزعة الفردية بطريقة خاصة(١٩) .

أما الاتجاه المحافظ Conservatism فهو عكس الاتجاهين السابقين على طول الخط . فاذا كان الاتجاهان السابقان (الراديكالى والليبرالى) قد تأثرا بأفكار عصر التنوير ، فان الاتجاه المحافظ قد عارض هذه الأفكار معارضة شديدة . واذا كان الاتجاهان السابقان قد أثرا فى الثورة وتأثرا بها فان الاتجاه المحافظ كان يناهض الثورة ويعتبر نزعة التحديث التى جاءت بها الثورة شرا اى شر . انه يهاجم كل ما تأتى به الثورة وتدافع عنه ، فى نفس الوقت يدافع عن كل شىء تهاجمة الثورة . ولأن هذا الاتجاه هو الذى اثر فى الفكر السوسيولوجى تأثيرا كبيرا ، فاننا سوف نفصل الحديث عنه بعض الشىء .

نهج المحافظون نهجا رومانسيا تشاؤميا ازاء الأحداث التى ولدتها الثورة الصناعية والثورة الفرنسية . وتنعكس تلك الرومانسية فى أنهم بالغوا فى دور العاطفة والخيال محاولين اعادة احياء الدين والشعر والفن ، مع اهمال دور العقل فى تنظيم المعرفة والمجتمع . وحاولوا البحث عن جذور النظم القائمة بدلا من محاولة تغييرها وفق أسس عقلية ، واهتموا بمفاهيم مثل الجماعة ، والمجتمع المحلى ، والأمة فى مقابل اهمال للمفاهيم الخاصة بالنزعة الفردية والنزعة العقلية . ولم تقتصر هذه الروح الرومانسية على الفلسفة ، بل

---

(١٩) لاشك أن هذا الفكر الليبرالى قد ارتبط بمذهب المنفعة Utilitarianism الذى صاغه فى صورته الفلسفية بنثام Bentham ووجد تعبيرا اجتماعيا فى كتابات هربرت سبنسر التى ركزت على الحرية ومبدأ عدم التدخل ، وصورت التطور فى المجتمعات البشرية على انه تطور طبيعى يشبه الى حد كبير تطور الكائنات العضوية الأمر الذى يتضمن ان صحة المجتمع تتمثل فى تطوره الطبيعى وعدم التدخل بأى شكل فى مجرى الأمور داخله .

امتدت لتظهر فى مجالات كثيرة كالأدب ، والفن ، والموسيقى ، والدين ، والكل يهدف الى تحرير العاطفة والخيال من القواعد والأشكال الصارمة التى فرضها فلاسفة عصر التنوير (٢٠) ، وتبناها الثوار والليبراليون . ويهمنا أن نستقصى هذه النزعة فى مجال الفلسفة ، فالفلاسفة المحافظون هم الذين وضعوا الأساس المعرفى الذى انبثق منه علم الاجتماع .

وأهم هؤلاء الفلاسفة المحافظون بيرك ودى ميستر وبونال وهيجل . ولنستعرض رأى أحدهم وليكن بيرك (٢١) ثم نستخلص فى النهاية السمات العامة لهذا الاتجاه المحافظ . لقد ساهمت آراء بيرك فى تكوين فلسفة اجتماعية وسياسية محافظة ، ليس فى بريطانيا وحدها ولكن فى كل القارة الأوروبية . أدان بيرك الثورة الفرنسية ، لما ادت اليه من تفكك وفوضى ، واستبدال القيم المقدسة غير الرشيدة بالمعايير الشخصية القائمة على التعاقد والمنفعة ، وتقلص السلطة السياسية والدينية والاجتماعية (٢٢) . وفى مقابل نقد الثورة الفرنسية مجد بيرك الثورة الأمريكية لأن الامريكيين حاولوا أن يحافظوا على الطابع العضوى للمجتمع . فبيرك كان ينظر الى المجتمع على انه كائن عضوى ، وان كانت اجزاؤه لا تنتظم بنفس الكمال الموجود فى الكائن العضوى ، ذلك لأن الكائن الاجتماعى تتغير بعض اجزائه بسرعة أكبر من اجزاء اخرى . وعندما يحدث شىء من هذا القبيل لابد أن يتم اعادة توازن المجتمع من خلال الاصلاح ، وليس الثورة . وعندما يقدم بيرك فهمه العضوى للمجتمع فانه بذلك يرفض الفهم العقلى المجرد الذى قدمه فلاسفة عصر التنوير والذى ينحصر فى وجود قوانين طبيعية عامة يمكن اكتشافها عن طريق العقل . واعتقد بيرك أن الثوار فى تطبيقهم لهذا الاتجاه ، قد اعتبروا المجتمع مثل الآلة معتقدين أنه يمكن رفع اجزاء وتغييرها بأجزاء أخرى جديدة . ومن ثم فقد هاجموا النظم القديمة المتكاملة مع النظام العام ، وحاولوا أن يغيروها وفق قواعد مجردة . لقد اعتبروا — يقصد الثوار — الفرد أهم من الأمة والدولة ، والجزء أهم من الكل ، وعالجوا الدولة على أنها علاقة تعاقدية بدلا

---

(٢٠) Zeitlen, Ideology and . . . , op. cit. p. 36

(٢١) وذلك لأن بيرك كان أكثر هؤلاء المحافظين تعصبا ، واكثرهم تأثيرا فى الفكر المحافظ فى أوروبا كلها .

(٢٢) Nisbet, Sociological Tradition, op. cit.,, p. 14.

من ارتباطها العضوى بالنظام العام . ويرى بيرك أن اعتبار الدولة مجرد عقد يجعلها تتحلل بمجرد أن يقرر المتعاقدون أنها لاتشبع مصالحهم ، أو عندما يختلف الأفراد . فالدولة تعتبر وحدة عضوية ، وجزء متكامل مع الجماعة القومية وربما ينعكس ذلك فى كلمات بيرك « ان الدولة لا تعتبر شركة بين الأحياء فقط ، ولكن بين الموتى والذين لم يولدوا بعد » (٢٣) .

ويقصد بيرك من تلك العبارة بطبيعة الحال ، ذلك الترابط القائم فى المجتمع بين الماضى والحاضر والمستقبل . كما أنها توحى بعدم اهتمامه بالفرد فاهتمامه كان منصبا على الجماعة « فليس للفرد حقوق مجردة . على العكس من ذلك تماما ، فان الفرد يملك فقط هذه الحقوق والواجبات التى تميز جماعة معينة ، والتى يكتسبها بحكم ولادته فى هذه الجماعة . والجماعة لا توجد فى لحظة معينة ، ولكنها سلسلة لا نهائية من الأجيال ، يرث كل جيل عن الجيل الذى يسبقه ولا يعتبر الفرد الا حلقة فى هذه السلسلة .. فليس لجيل الثورة اذن الحق فى أن يحطم العادات والنظم التى تتعلق بأجيال سابقة وأجيال أخرى قادمة . وليس لهم الحق فى أن يعتبروا انفسهم سلطة مسيطرة على ما هو متعلق بالماضى والمستقبل . فكل جيل يجب أن يضيف الى ما انجزه الجيل السابق ، وينقل التراث كاملا لأصحابه » (٢٤) .

هكذا تعكس آراء بيرك النزعة المحافظة التى اعتبرت أن التغيرات الاجتماعية التى تبعث الثورة الفرنسية قد قللت من شأن النظم الأساسية وحطمتها ، وكان من نتيجة ذلك فقدان الاستقرار السياسى . وأرجع المحافظون هذه النتائج الى بعض الأحداث السابقة فى التاريخ الأوروبى والتى أدت — حسبما يعتقدون — الى اضعاف مستمر لنظام العصور الوسطى وبلغت ذروتها فى تفجير الثورة . وأشاروا فى هذا الصدد الى المذهب البروتستنتى والراسمالية، والعلم على أنها القوى الرئيسية التى أدت الى ذلك لقد أضفى المحافظون الطابع المثالى على النظام العام فى العصور الوسطى ، وذهبوا الى أن العصر الحديث يحتاج الى استعادة هذا النظام بالضرورة (٢٥) .

---

(٢٣) Zeitlen, Ideology and..., op. cit., pp. 37—38

(٢٤) Ibid, p. 39

(٢٥) Ibid., p. 53.

فى اثناء هذا الجدل مع الثوار ، ومع فكر عصر التنوير ، ومن خلال هذه الروح الرومانسية التى تستهدف أستعادة نظام العصـــور الوسطى ، طور المحافظون عددا من القضايا تفسر طبيعة المجتمع . ويحصر روبرت نيسبت(٢٦) الانتقادات الرئيسية التى تبعث من كتابات المحافظين الأوائل فى ثلاثة اتجاهات رئيسية . يرتبط الأول بمفهوم الجماهير masses ويعنى السكان المنفصلين انفصالا أخلاقيا واجتماعيا عن طريق القوى السياسية التى نادى الليبراليون والراديكاليون فى القرن التاسع عشر على أنها تقدمية . أما الاتجاه الثـانى فيرتبط بمفهـــوم الاغتراب Alienation ويعنى حالة الاحباط وعدم الشعور بالأمن والتى تنتشر بين الأفراد نتيجة للتغيرات الفكرية والأخلاقية التى نظر اليها أنصار الاتجاه العقلى على أنها تؤدى الى التحرر من شـــبكة العادات القديمة . أما الاتجاه الثالث فهو الاتجاه المرتبط بمفهوم القوة power ويعنى القوة التى تنبع من وجود الجماهير المكونة من افراد منفصلة تحـــركهم قوة مركزية .

وفى مقـــابل هذه الانتقادات يوجد عدد من القضـــايا الأكثر تحديدا فى تناقضها مع الأفكار العقلية التى انتشرت فى القرن التاسع عشر ، وهى قضايا تتصل بطبيعة المجتمع والانسان . يحصر نيسبت وزايتلن هـــذه القضـــايا فيما يلى (٢٧) :

١ ــ المجتمع وحدة عضوية تحكمه قوانين داخلية للتطور ، وهى قوانين تضرب بجذورها فى الماضى السحيق ، وليست مجموعة ميكانيكية من العناصر الفردية . فالمجتمع لايمكن خلقه عن طريق شخص واحد ، ، لأن وجود المجتمع هو استمرار بين الحاضر والماضى والمستقبل .

٢ ــ بهذا يكون المجتمع سابقا على الفرد ، تاريخيا ومنطقيا وأخلاقيا.

---

(٢٦) Robert Nisbet, **Tradition and Revolt, Vantage Books,** New York, 1970, pp. 75—76.

(٢٧)اعتمدت فى عرض هذه القضايا على المصدرين التاليين :

R. Nisbet, Tradition and Revolt, op. cit., pp. 77—82.

I. Zeitlen, Ideology and the Development of Sociological Theory, op. cit., pp. 53—55.

نلحظ ذلك فى افكار بيرك السابقة ونضيف هنا رأى بونال الذى يقول « يوجد الانسان فقط فى المجتمع ومن اجله .. والمجتمع هو الذى يشكله .. فالمجتمع هو الذى يكون الفرد من خلال التعليم الاجتماعى » .

٣ ــ يعتبر الفرد مفهوما مجردا وليس العنصر الأساسى فى المجتمع . فالمجتمع يتكون من علاقات ونظم ، أما الأفراد فهم مجرد أعضاء فى المجتمع يشغلون بعض الأدوار والمكانات : آباء ، وأولاد ، وكهنة ، وعمال ، ومديرين ... الخ .

٤ ــ يكشف المجتمع عن قدر من الترابط بين اجزائه المكونة . فما دام المجتمع وحدة عضوية ، فان العادات الاجتماعية ، والمعتقدات والنظم داخل هذا المجتمع تترابط ترابطا عضويا الى درجة أن تغير جزء معين او اعادة صياغته سوف يؤثر على مركب العلاقات التى تحافظ على استقرار المجتمع ككل .

٥ ــ للانسان حاجات ثابتة وغير متغيرة تعمل كل نظم المجتمع على الوفاء بها . فالنظم ما هى الا اجهزة لسد حاجات الانسان واذا تعطلت هذه النظم أو اصابها الخلل فسوف تكون النتيجة هى المعاناة وسوء النظام .

٦ ــ الترابط بين النظم ترابط وظيفى . فكل نظام له وظائف معينة بحيث تسهم كل وظيفة فى النهاية فى المحافظة على بناء المجتمع .

٧ ــ يعتبر وجود الجماعات الصغيرة والمحافظة عليها شىء اساسى بالنسبة للمجتمع . فالجماعة وليس الفرد هى الوحدة الأساسية فى المجتمع . ومن ثم فان الأسرة وجماعة الجوار ، والمقاطعة ، والجماعات الدينية ، والجماعات المهنية تعتبر من الوحدات الأساسية ، وهى الدعائم التى تقوم عليها حياة الأفراد . ان هذه الجماعات هى « مستقرنا وملاذنا » على مايقول بيرك .

٨ ــ اهتم المحافظون ايضا بالتنظيم الاجتماعى . فالثورة كما نظروا اليها قد أدت الى ضرب من ضروب عدم التكامل الاجتماعى والأخلاقى . ومن اهم

مظاهر سوء التنظيم فى نظرهم ما أطلقوا عليه النزعة الفردية الدينية ، التى ظهرت بظهور المذهب البروتستنتى ، ذلك المذهب الذى أهمل العناصر الرمزية ، والطقوسية ، والتوحيدية ، فى الدين . ومن هنا كانت دعوتهم الى المحافظة على الأشكال الدينية القديمة ، الكاثوليكية طبعا . ومن أهم مظاهر سوء التنظيم أيضا انتشار الحضرية ، وطغيان المدينة على الريف . ومن هنا كان حنينهم الى الريف وما فيه من استقرار وتضامن .

٩ — ركز المحافظون على الأهمية الجوهرية والقيمة الايجابية للجوانب غير الرشيدة للوجود الانسانى . ومن هنا رفضوا القول بأن الانسان يعيش من خلال العلاقات القائمة على العقل ، ورفضوا تفسير المجتمع على أساس الدوافع العلمانية الخالصة والدوافع الفردية المتصلة بالانجاز . وفى مقابل ذلك اهتموا بالجوانب غير العقلانية للحياة الاجتماعية مثل ممارسة الطقوس والعبادة .

١٠ — قدس المحافظون التدرج الاجتماعى والمكانة الاجتماعية فى المجتمع فبدون تدرج فى المجتمع لايمكن ان يوجد استقرار كما أن الطبقات تؤدى وظائف كبيرة فى المجتمع . وقد تولد هذا الاعتقاد عند المحافظين من تخوفهم لأن تؤدى العدالة الى تحطيم النظم المقدسة التى من خلالها تنتقل القيم من جيل الى جيل آخر .

١١ — وأخيرا فقد أكد المحافظون مبدأ شرعية السلطة . وتكتسب السلطة الشرعية عندما تكون نابعة من عادات وتراث الشعب ، وعندما تتشكل فى روابط مستمرة تبدأ من الأسرة وتستمر مع الجماعة والطبقة ثم صفوة المجتمع .

هذه هى الاتجاهات الفكرية التى سادت فى القرن التاسع عشر . ولقد دخلت هذه الاتجاهات فى صراع عنيف . ولكن ما يهمنا هو أن نوضح كيف أثرت هذه الاتجاهات على انبثاق علم الاجتماع . يجمع النقاد — برغم المعارضة التى يواجهونها كما أشرنا من قبل — على أن ظهور علم الاجتماع كان امتدادا للاتجاه المحافظ فى مقابل رفض الاتجاهين الآخرين . فعلم الاجتماع « يمثل أحكاما لوجهة النظر المحافظة عن المجتمع والتى تتعارض مع الاتجاهات التى

تنادى بالتحرر الانسانى » (٢٨) فمع احتدام آثار الثورتين ، ومع تفاعل هذه الاتجاهات الفكرية وخلقها لصراعات ايديولوجية عبر مستويات عديدة ظهرت فى المجتمع مشكلة نظام ملحة ، استجاب علم الاجتماع لها استجابة محافظة . ولكن كيف حدث هذا ؟ هذا هو موضوع الفترة القادمة .

ثانيـــا : أوجست كونت وبداية التجسيد الأيديولوجى :

كتبت مـــدام دى ســـتيل Desteal فى القـــرن التاســـع عشر تقـــول « أنا لا أعرف بالضبط ما الشىء الذى يجب أن نعتقد فيه ، ولكنى واثقة اننا يجب أن نعتقد فى شىء ما » (٢٩) . تلخص كلمات دى ستيل هـــذه المشـــاعر الوضعية التى نشأت فى منتصف القرن التاسع عشر ازاء الصراع الفكرى والبنائى القائم . فالتحولات البنائية التى استعرضت جانبا منها فيما سبق لم تختف مع ظهور الاتجاه الراديكالى والليبرالى والمحافظ ، وانمـــا امتدت واتخذت أشكالا جديدة . ويبدو أن أيا من هذه الاتجاهات لم يستطع أن يرد للمجتمع توازنه ونظامه ، فوجودها بجانب بعضها أذكى الصراعات القائمة . حقيقة أن الاتجاه المحافظ كان بامكانه أن يقوم بهذه المهمة ، ولكن الانتشار الضافى للنـــزعة الراديكالية والثورية جعل النزعة التشاؤمية المحـــافظة تختفى وسط بريق الثورة (٣٠) .

---

(٢٨) T.B. Bottomore, Sociology as Social Criticism, op. cit., p. 13

(٢٩)نقلا عن جولدنر ، الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى ، مرجع سابق ، ص ٩٧ .

(٣٠) نستطيع القول بحق بأن الدراسات السوسيولوجية الشهيرة فى القرن التاسع عشر كانت كلها تحليلا جدليا للعلاقة بين البنية التقليدية والبنية الراسمالية الرشيدة . التى تولدت عن هذه البنية التقليدية بفضـــل عوامل الثورة الفرنسية والتصنيع ، وان هذه الدراسات قد جسدت بحق الصراع بين قديم يحتضر وجديد يتدفق تدفق السيل . فالكثير « منهم قد اهتم باقامة نماذج مثالية تعكس خصائص المجتمع الجديد واخرى تعبر عن سمات المجتمع التقليدى » (السيد الحسينى ١٩٧٤ ، ص ١٣) فقد ميز كونت بين النظام والتقدم؛وميز دوركايم بين التضامن الآلى والتضامن العضوى.وقدم ماركس=

يذهب جولدنر الى أن البناء الاجتماعى للعصر الذى ظهر فيه علم الاجتماع كان يتسم بالخصائص التالية :

١ ــ الصراع بين الطبقة النبيلة التى استعادت كيانها بعد هزيمة نابليون وبين الطبقة الوسطى المتأثرة بالثورة والتى تشربت مبادىء الاتجاه الراديكالى وعصر التنوير .

٢ ــ برغم تعارض الطبقتين الا أن كل طبقة كانت تظهر اختلافا داخليا بشأن الطريقة التى يجب أن تحسم بها الأمور وشكل الخريطة الاجتماعية المرغوبة . فكل طبقة ظهر داخلها معتدلون ومتطرفون .

٣ ــ كانت هناك مجموعة كبيرة من الأمور تتصل بشكل النظام الاجتماعى العام واختلفت عليها كل طبقة .

٤ ــ بدأت النظم القديمة التقليدية المرتبطة بالدين تفقد اهميتها وبدأ الناس فى التخلى عنها فى وقت بدأت هذه النظم تجد مناصرين ومشايعين من طبقة النبلاء .

٥ ــ استمر العلم تحت كل هذه الظروف فى التطور (٣١) .

هذه الخصائص البنائية تعتبر امتدادا للتغيرات البنائية التى أحدثتها الثورة الفرنسية والثورة الصناعية . ولكن نلحظ هنا ان طبقة النبلاء بدأت

= اطار تطوريا لأنماط المجتمعات ورؤية جديدة لمستقبل المجتمع الراسمالى . واوضح فيبر كيف تتولد النظم الحديثة (الراسمالية) من النظم القديمة (البروتستانتية) وقدم انماطا متباينة من الفعل الاجتماعى يقف على قمتها نمط الفعل الرشيد . غير أن جميعهم ــ باستثناء ماركس والى حدما ماكس فيبر ــ قد وقفوا بجانب النمط القديم التقليدى ومن هنا دفاعهم عن النظام العام الثابت والمستمر .

(٣١) A. Gouldner, Coming crisis of Western Sociology, op. cit., p. 95.

تستعيد بعض مجدها السابق وبالتالى مهدت الجو لبواكير فلسفة تمكنها من اعادة السيطرة تماما ، ولكنها زادت — فى نفس الوقت — من احتدام الفوضى الفكرية بين دعاة النظام ودعاة التقدم « فدعاة النظام يذهبون الى أن المشكلة ترجع الى تحطيم النظام القديم .. وعلى النقيض من ذلك يذهب الحزب الفوضوى الى أن الأزمة ناتجة عن أن النظام القديم لم يحطم تحطيما كاملا » (٣٢) . وهنا ظهرت الحاجة الى فلسفة جديدة ، تلك الحاجة التى عبرت عنها مدام دى ستيل فى عبارتها السابقة . لقد بدأ المجتمع يتوق الى كهانة جديدة تستطيع أن تفى بوظائف الكنيسة التى بدأت تتقلص (٣٣) .

ويذهب جولدنر الى ان الجيل الجديد الذى قدم هذه الفلسفة هو جيل فصل نفسه عن أى من التيارات الفكرية ولم يجذبه الا العلم وحده . هذا الجيل عبر عن مجموعة من المشاعر وسمها جولدنر بأنها مشاعر وضعية . فمع بداية عام ١٨٢٤ — والحديث لجولدنر — ظهر جيل جديد ، لم يناصر الأيديولوجية الثورية ولكنه لم يناهضها . وبدأ هذا الجيل يتأثر بتطور العلم السريع ، ويطالع الكثير من المجلات العلمية . ولقد كان هذا الجيل يتصف بسمتين : القدرة على الانفصال عن الأطر الفكرية السائدة من ناحية ، والاستعداد للتأثر بنسق فكرى جديد من ناحية أخرى . لقد احس هذا الجيل بالحاجة الى أيديولوجية تضفى على العالم صورة رومانسية ، وتتفق فى نفس الوقت مع النظرة العلمية الجديدة . أنها حاجة الى بديل جديد لخريطة العالم الاجتماعى التى حطمتها الثورة والتى لم تستطيع الطبقة الوسطى — حاملة مشعل هذه الثورة — أن تقدمه (٣٤) . هذا الجيل الذى يتحدث عنه جولدنر هو الذى قدم الفلسفة الوضعية والتى ظهر من خلالها علم الاجتماع ، وهو الذى تقبلها ونشرها .

فمن هذا الجيل ظهر كونت مؤسس الوضعية . لقد حاول كونت أن يسعى

---

(٣٢) Zeitlen, Ideology and the Development of Sociological Theory, op. cit., p.,

(٣٣) J. Rex, Discovering Socioolgy, Routledge and Kegan Paul, London, 1973, p. 59.

(٣٤) A. Couldner, The Coming Crisis, op. cit., p. 98

بنظريته الى تحقيق حالة من الاتساق العام فى المجتمع . فالنظام لايمكن أن يقوم الاعلى اساس نوع من الاشتراك فى الأفكار بين اولئك الذين يكونون المجتمع من حيث ان الاتساق العام هو الحقيقة الأساسية فى النظام الاجتماعى (٣٥) . وهذا هو السبب الذى جعل الوضعية تنتشر هذا الانتشار الواسع عند ظهورها : فالعقول مهيأة لتقبلها ، ثم جاءت لتستعيد توازن المجتمع الذى لم تستطع اى من الاتجاهات الفكرية السائدة أن تحققه . وسوف أستعرض فيما يلى — على عجالة — بعض آراء كونت محاولا قدر استطاعتى أن أوضح كيف كانت هذه الآراء استجابة محافظة لمشكلة النظام العام . وقبل أن ابدا هذا العرض لابد أن اناقش قضية طرحها جولدنر مؤداها أن الجيل الوضعى الجديد قد حقق قدرا كبيرا من الموضوعية لأنه رفض كل البدائل القديمة المطروحة للاصلاح الاجتماعى وانفصل عنها وارتبط بالعلم . ولا نستطيع ان نوافق على هذا الرأى . فانفصال هذا الجيل لا يعنى موضوعيته . ربما يكون قد حاول ان يحقق هذه الموضوعية ولكنه فشل . فكونت — مثل هذا الجيل — قد وجد فى كتابات المحافظين الكثير من الحلول للمشكلات التى يعانى منها المجتمع . بل ان جولدنر نفسه يذهب الى أن سبب انتشار الوضعية هذا الانتشار الواسع النطاق هو تأكيدها على مشكلة النظام وتدعيمها للوضع الراهن (٣٦) وسوف يتضح لنا ذلك بجلاء عندما نستعرض آراء كونت .

١ — المذهب الوضعى :

يقول أوجست كونت « تقدم الفلسفة الوضعية الأساس المتين الوحيد لاعادة التنظيم الاجتماعى الذى يجب ان يحل محل الجو النقدى الذى تعيش فيه اغلب الدول المتحضرة الآن» (٣٧) . تظهر من هذا النص الظلال الأيديولوجية

---

(٣٥) علياء شكرى ، علم الاجتماع الفرنسى المعاصر ، دار الكتب الجامعية القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٥ .

(٣٦) A. Gouldner, The Coming Crisis of Western Sociology, op. cit., pp. 102—104.

(٣٧) Auguste Comte, The positive Philosophy, Vol. 1 trans Harriet Martineau and John Chapman, 1853, p. 14.

التى تغلف كلمة « وضعى » Positive فهذه الكلمة يجب أن تحل محل كلمة الرفض أو السلب التى تتبناها المبادىء النقدية بحيث تكون الفلسفة الجديدة (الوضعية) بناءة وليست هدامة . فهى القادرة على خلق النظام من قلب الفوضى القائمة . ذلك لانها تناسب الفترة التاريخية فى هذا الوقت . فالفلسفة الوضعية هى قمة تطور حدث فى الفكر الانسانى مر بثلاثة مراحل : مرحلة التفكير الثيولوجى أو الخيـــالى the ological مرحلة التفكير الميتافيزيقى أو المجرد Metaphysical ثم اخيرا مرحلة التفكير الوضعى Positive (٣٨) . ولايمكن أن يتحقق الاستقرار الذى يعد الشرط الأول لتحقيق النظام العام ، لايمكن أن يتحقق فى وجود هذه الاتجاهات الفكرية متصارعة ، وهو غير قائم فى المجتمع بسبب عدم الاتفاق الفكرى بينهـــا : فلا يزال التفكير الثيولوجى والتفكير الميتافيزيقى يعيشان بجانب التفكير الوضعى الجديد . وسوف تظل الأمم فى حالة من الثورية الى أن يتم الاعتراف بمجموعة من الأفكار العامة يمكن أن نعتبرها نقطة تجمع لمذهب اجتماعى . وعندما يتوصل المجتمع الى هذه المبادىء ، فان النظم القائمة سوف تتوافق معها دون أدنى مقاومة . وسوف يؤدى هذا التوافق الى الامساك بأسباب عدم النظام فى المجتمع(٣٩) . هذه المبادىء العامة هى مبادىء الفلسفة الوضعية . فالالتفاف حولها هو الكفيل باعادة النظام الى المجتمع المفكك .

وتهتم الفلسفة الوضعية أو علم الاجتماع فى نظر كونت ـــ بالظواهر الاجتماعية التى اهملتها العلوم الموجودة فى عصره : الفلك ، الفيزياء ، والكيمياء وعلم وظائف الاعضاء . فهذه الظواهر لها نفس روح الظواهر الفلكيـــة والفيزيائية والكيميائية والفسيولوجية من حيث انها يمكن أن تخضع لقوانين عامة . بل انها اكثر تفردا واشد تعقيدا من الظواهر التى تدرسها العلوم الأخرى (٤٠) . من هنا تكون مهمة علم الاجتماع هى « اكتشاف سلسلة التحولات الثابتة المتتابعة للعنصر الانسانى الذى بدأ من مستوى لايرقى عن مجتمعات القردة العليا ، وتحول تدريجيا الى حيث يجد الأوروبيون المتحضرون انفسهم اليوم » (٤١) .

---

(٣٨) Ibid., p. 1

(٣٩) Ibid., p. 14

(٤٠) Ibid., p. 7

(٤١) نقلا عن تيماشيف نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ٢٨ .

ان كونت بذلك يسعى الى انشاء علم عام للمجتمع . ولقد اعتبر دراسته المطولة عن السياسة الوضعية دراسة فى علم الاجتماع ، أو أنها تلخيص لعلم دراسة المجتمع الجديد . ومبادىء هذا المذهب الوضعى سوف لاتجعلنا بحاجة الى الاعتماد على الديانات التاريخية . فالمبادىء الوضعية يجب أن تحل محل المسيحية التقليدية (٤٢) ربما كان هذا هو السبب الذى دفع كونت الى أن يعتبر مذهبه الوضعى ديانة جديدة للانسانية . وعلماء الاجتماع فى نظره هم كهنة هذا الدين الجديد (العلم الجديد) ، والقائمون على أمره ، والساهرون على رعايته . حقيقة انهم سيلتزمون التزاما صارما بالابتعاد عن توجيه الشئون الدنيوية ، ولكنهم سيضطلعون بالاشراف على الحياة الفكرية والاخلاقية فى مجموعها . وستسير الأمور فى ظل النظام الجديد بصرامة . ويصبح الخلق الكريم والطاعة واجبا ملزما لكل انسان . وسيصبح كل فرد موظفا فى خدمة المجتمع (٤٣) . وبناء على ذلك يظل البناء الطبقى كما هو ، بحيث يتوقف الصراع الطبقى من خلال احداث توفيق أخلاقى بين الطبقات . ويمكن تسهيل هذه المهمة عن طريق فرض سلطة اخلاقية بين الطبقات العاملة وقادة المجتمع(٤٤) .

ويتضح من هذا العرض المختصر للفلسفة الوضعية عند كونت أنه برغم محاولته المستميتة لأن يظهر تفرد الفلسفة الوضعية وانفصالها عن الأطر الفكرية القائمة واضفاء الطابع العلمى عليها (٤٥) . رغم ذلك فان آراءه ما هى الا صياغة جديدة للاتجاه المحافظ الذى عرضت لقضاياه الأساسية فيما سبق . ولقد اعترف كونت بذلك اعترافا ضمنيا عندما تحدث عن الثورة والتغير الاجتماعى حيث كشف حديثه عن عداء لهما مما يؤكد اتجاهه المحافظ يقول : « يمكن فقط من خلال السياسة الوضعية كبح الروح الثورية . كما يمكن من

---

(٤٢) Nisbet, Tradition and Revolt, op. cit., p. 84

(٤٣) علياء شكرى ، علم الاجتماع الفرنسى المعاصر ، مرجع سابق ص ١٠

(٤٤) Zeitlen, Ideology and . op. cit., p. 75.

(٤٥) تحدث كونت عن المنهج العلمى باختصار شديد ، واشار فى هذا الصدد الى فكرة القوانين العامة ، واستخدام الملاحظة والتجربة والمقارنة والمنهج التاريخى الذى يسعى الى الكشف عن القوانين العامة للتغير .

خلالها تقدير وحصر الاتجاه النقدى .. ويمكن توجيه كل المسائل الصعبة التى تجعل المجتمع فى حالة هياج مستمر .. الى تحقيق قدر من السلام الاجتماعى .. وسوف تعلم الفلسفة الوضعية المجتمع أن التغير السياسى ليس له اى اهمية ، وان التغيرات العنيفة غير مجدية .. ومن ثم تميل الى المحافظة على النظام العام » (٤٦) ويتضح ذلك بجلاء عندما نوضح موقف كونت من قضيتى النظام والتقدم .

٢ ــ النظام والتقدم :

ان محاولة كونت الربط بين النظام والتقدم ، هى محاولة للربط بين الفكر المحافظ المشتق من بونال وميستير والفكر النقدى الذى ترجع جذوره الى عصر التنوير (٤٧) ليخرج بشىء جديد هو الفلسفة الوضعية التى اعتقد انه يمكن تنظيم المجتمع على أساسها . ولكن برغم هذه المحاولة للربط بينهما الا أن كونت قد أولى اهتماما كبيرا للنظام ، وحصر كل حديثه عن التقدم فى قانون المراحل الثلاثة أو محاولة اكتشاف التغيرات الكبرى فى الحضارة الانسانية . واكثر من ذلك فان التقدم والحركة يجب أن يكونا فى خدمة الاتساق العام ، فالحركة لايجب أن تؤدى الى انهيار وتفكك فى النسق الاجتماعى (٤٨) و ويؤكد وجهة النظر هذه جون ركس Rex حيث يقول « بالرغم من أن كونت قد استفاد من قانون المراحل الثلاثة ومن فكرة الديناميكا الاجتماعية ، الا أن أهم فصل فى كل أعماله هو الفصل الذى كتبه عن الاستاتيكا الاجتماعية » (٤٩)

بذلك يكون علم الاجتماع فى نظر كونت هو علم النظام العام : يعمل على احداثه ، ثم يحاول تفسيره وتشريحه بعد أن ترسى دعائمة . اما نظريته عن التقدم فقد جاء بها ليوهم نقاد المجتمع أنه يستطيع أن يربط بين النظام والتقدم

---

(٤٦) نقلا عن زايتلن ، **المرجع السابق** ، ص ٧٤ .

(٤٧) Zeitlen, Ideology and... op. cit., p. 71

(٤٨) تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، **مرجع سابق** ، ص ٣٩ .

(٤٩) J. Rex, Discovering Sociology, op. cit., p. 95.

او بين القديم والجديد . فقد كانت الاتجاهات الثورية والنقدية من الانتشار والتأثير بحيث لايستطيع اى منظر أن يتجاهلها أو يتغاضى عما تنادى بـــه (التقدم) . ولقد تصور كونت أنه يستطيع أن يربط بين النظام والتقدم ، ولكن جاءت نظرياته مركزة على النظام ، مع لمس التقدم والتغير لمسا سطحيا ، بل صياغته فى اطار فلسفى بحت . ونستطيع أن نسوق الشواهد التى تدعم هذه الفكرة التى تخدم هدفنا الرئيسى من عرض آراء كونت ، واعنى ابرازا تركيزه على حل مشكلة النظام العام فى المجتمع :

١ ــ تخوف كونت تخوفا كبيرا من الروح النقدية السائدة فهاجمها هجوما كبيرا . فهذا النقد يترتب عليه نتائج غير تنظيمية ، ويؤدى الى تحطيم النظم التى اكتسبت مكانتها عبر الزمن . فنقد العائلة الأبوية ، أو نقد الواجبات الاجتماعية يجعـــل المجتمع يفقـــــد السلطة الأخلاقيـــة ويتردى فى حالـــة من الرعب والفوضى (٥٠) . ويطيب لى أن اشبه هذه النظرة بنظرة هوبز الى الطبيعة البشرية على أنها تميل اللئام دائما عن حرب يدخل فيها الكل ضد الكل . وكان حل هوبز لهذه المشكلة تهريا تعاقديا كما راينا . أما حل كونت فهو حل وضعى يخلق فى النهاية ضروبا كثيرة من ضروب القهر .

٢ ــ اعجب كونت اعجابا يفوق الحد بالماضى ، خاصة مجتمع العصور الوسطى . وذهب الى القول بأن الكاثوليك المتزمتين لهم فضـــــل كبير على الوضعيين وذلك لتمسكهم بثقافة العصور الوسطى . فضلا عن ذلك امتدح كونت اتباع بونال ــ وهو من الفلاسفة المحافظين ــ وذلك لاستخدامهم مبادىء وضعية فى تحليلهم للنظم ، وتأكيدهم على أولوية المجتمع على الفرد ، واعتماد الفرد اجتماعيا على قيم المجتمع ونظمه(٥١) .

٣ ــ الاتساق العام فى المجتمع هو أساس النظام والتقدم . فالاستاتيكا الاجتماعية هى دراسة لارتباط الظواهر بعضها بالبعض الآخر ، وأجزاء المجتمع لايمكن أن تفهم منفصلة عن بعضها كما لو كان لـــــكل منها وجود

---

(٥٠) Zeitlen, Ideology and ... op. cit., p. 73

(٥١) R. Nisbet, Tradition and Revolt, op. cit., p. 84.

مستقل . وعلينا بدلا من هذا أن ننظر اليها على اعتبار انها تربط بينها علاقات متبادلة ، وانها تكون كيانا كليا يفرض علينا أن نتناولها فى علاقاتها ببعضها البعض (٥٢) .

يقول كونت « يجب أن يكون هناك تناغم مستمر بين الكل والاجزاء فى النسق الاجتماعى ، الذى يجب أن ترابط عناصره بالضرورة فى جو متوافق توافقا كليا مع طبيعة هذه العناصر .. ولا يتحقق هذا التناغم تحققا كليا ، الا انه قائم على أى حال : فبدونه يتحلل الكائن العضوى الاجتماعى تحللا كليا » (٥٣) .

٤ ــ المجتمع هو صانع الفرد ، ومن ثم يجب أن يخضع الفرد للمجتمع خضوعا تاما .وبناء على ذلك فان وحدة الدراسة فى علم الاجتماع هى الجماعة وليس الفرد . ففكرة الشخصية الفردية الخالصة فكرة منطقية من الناحية السيكولوجية ، فالوحدة الأساسية فى المجتمع هى الأسرة ، التى تشكل شخصية الفرد . يقول كونت : « مثلما يتكون كل نسق من عناصر ذات طبيعة واحدة ، فان الروح العلمية تمنعنا من أن نعتبر المجتمع حشدا من الافراد . فالوحدة الاجتماعية الحقيقية هى الأسرة ، التى يمكن أن نردها الى الزوجين على أساس انهما يكونان قاعدتها الأساسية » (٥٤) ، ولا يدل هذا النص على علمية كونت بقدر مايدل على اتجاهه المحافظ . فلم يكن كونت عالما ، ولكنه من خلال عبادته الرومانسية للعلم نزع الأبنية الاجتماعية للأسرة ، والجماعة المحلية ، واللغة ، والدين ، من الاطار الثيولوجى والرجعى الذى وضعها فيه بونال ، واضفى عليها لغة وطابع العلم على ما يذهب روبرت نيسبت (٥٥) .

٥ ــ تقسيم العمل يؤدى الى مزيد من الترابط . فرؤساء الأسر

---

(٥٢) اليكس انكلز ، مقدمة فى علم الاجتماع ، **مرجع سابق** ، ص ٣٥ .

(٥٣) A. Comte, The Positive Philosophy, **op. cit.**, Vol. 2 p. 5.

(٥٤) Ibid, p. 132.

(٥٥) R. Nisbet, Tradition and Revolt, **op. cit.**, pp. 84—85.

يرتبطون مع بعضهم من خلال تقسيم العمل . ولكن تقسيم العمل قد لايحقق هذا الهدف ، ومن هنا تظهر اهمية الدولة التى لابد أن تفرض رقابة سياسية وفكرية لضمان تحقيق التكامل . ولقد ضمن كونت تحت تقسيم العمل التفرقة بين الملاك وغير الملاك ولكنه لم يتخوف من الصراع الطبقى بينهما بقـــدر ما تخوف من الفشل فى تحقيق التكامل بين المهن (٥٦) .

نستطيع بنظرة سريعة على ما سبق أن نلحظ ذلك الارتباط الوثيق بين عناصر النظام التى رأيناها فى الفصل الأول ، وبين ما قدمه كونت من آراء وضعية لاعادة بناء المجتمع . فالثبات ، وتبادل العلاقات بين أجزاء النظم المختلفة ، والقهر والكبح الذى يحقق هذا الثبات وذلك التناغم بين العلاقات وكلها عناصر تحقق النظام الاجتماعى العام ، يمكن أن تشتق بسهولة من آراء كونت . هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى فان اهتمام كونت بالجماعة ككل ، وبالبناء الاجتماعى العام ، والاتساق العام ، وايمانه الراســخ بأن فلسفته الوضعية تستطيع أن تعيد النظام للمجتمع ، كل ذلك وضعه فى مأزق ايديولوجى بحيث انساق وراء الاتجاه المحافظ فأصبحت أفكاره لاتعدو أن تكون تكرارا لما قاله المحافظون . وهذا كله يجعل كونت ، الى جانب انه الأب المؤسس لعلم الاجتماع ، أول من ربط علم الاجتماع بالأيديولوجيا .

ثالثا ــ اميل دوركايم « امتداد الوضعية » :

رأينا فى الفقرة السابقة كيف انبثق علم الاجتماع على يــد أوجست كونت من خلال الصراع بين مجموعة من المذاهب الفكرية كانت تعبر بدورها عن صراع على المستوى الاجتماعى بين الطبقات والفئات التى تكون المجتمع وهى صراعات فكرية وبنائية اذكتها الثورة الفرنسية والثورة الصناعية . ورأينا ايضا كيف كانت انبثاقة علم الاجتماع محاولة من أجل تثبيت مصادر الصراع هذه لكى يحقق المجتمع استقراره فى ظل فلسفة جديدة ، او ديانة جديدة واعنى الفلسفة الوضعية او الديانة الوضعية . و فى هذه الفقرة احاول ان ابرهن على قضية أســاسية مؤداها ان آراء اميــل دركايم ونظرياته السوسيولوجية كانت امتدادا وتمحيصا للفلسفة الوضعية ازاء ظروف بنائية

---

(٥٦) J. Rex, Discovering Sociology, op. cit., p. 95

وفكرية أثارت من جديد مشكلة النظام وفرضت على دوركايم ، أو فرض عليها دوركايم ، حلا معينا لهذه المشكلة . ولكى أحقق هذه الغاية سوف أكشف عن بعض الظروف البنائية والفكرية التى انبثق عنها فكر دوركايم ، بعدها أعرض لمظاهر امتداد الوضعيه عنـــده فأتحدث عن الضمير الجمعى ، والتضامن ، والمظاهر المصاحبة له .

١ ــ الظروف البنائية والفكرية :

بدأ دوركايم فى الكتابة والمجتمع الفرنسى يتعرض لأزمة أصابته بسوء التكامل ، وذلك بعد الهزيمة فى الحرب مع المانيا فى عامى ١٨٧٠ ــ ١٨٧١ . وبناء على ذلك ظهرت مجموعة من المتاعب واجهت ظهور الجمهورية الثالثة فى فرنسا ، ومن هنا ظهرت من جديد مشكلة الاتساق العام : كيف يمكن حماية المجتمع من الانهيار (٥٧) ومع وجود هذه الأزمة لم تكن الظروف التى أدت الى انبثاق علم الاجتماع على يد كونت قد اختفت تماما : فما يزال الصراع بين النزعة المحافظة والاشتراكية الراديكالية قائما (٥٨) وكان على دوركايم أن يختار لنفسه طريقا وسط هذه الظروف .

يذهب جيـــدنز Giddens الى أن دوركايم لم يكن منخرطا فى العمل السياسى وان موقفه السياسى يمثـــل رفضـــا للنزعة المحافظة والاشتراكية الثورية . فهو ليبرالى تأثرت ليبراليته بالظروف الاجتماعية والسياسية للاقليم الذى يعيش فيه(٥٩) وأكد جيدنجز هذا الرأى فى مؤلفه الحديث الذى أشرت اليه فى الفصل الأول ، حيث رفض اقامة أى علاقة بين آراء دوركايم وبين مشـــكلة النظام . ولكن سوف يتكشف لنا من عرض آراء دوركايم انه لم يكن يرفض الاتجاه المحافظ ، بل أن الكثير من الكتاب يربطون بين آرائه وبين هذا الاتجاه ربطا وثيقـــا (٦٠) . وانا أميل الى وجهـــة النظر الأخيرة .

---

(٥٧) L. Coser and B. Rosenberg (eds) **Sociological Theory,** The Macmillan Company, New York, 1967, p. 187

(٥٨) A. Giddens, **Capitalism and Modern Social Theory,** Cambridge, at the University Press, 1971, p. 196

(٥٩) Ibid., p. 199.

(٦٠) روبرت نيسبت وزايتلن على سبيل المثال . والنتيجة الطبيعـــة لهذا هى اثبات العلاقة بين نظرية دوركايم وبين مشكلة النظام وهو ما أراد جيدنجز أن ينفيه .

فحيثما تظهر مشكلة النظام ، وحيثما يكون حل هذه المشكلة محاولة لأن يحقق المجتمع تكامله واستقراره وأن يتخطى مظاهر الصراع الكامنة فيه ، فان صاحب هذا الحل يكون محافظا بصرف النظر عن أى انتماء سياسي . ويصدق هذا على دوركايم بطبيعة الحال . فمع انهيار المجتمع الفرنسى عام ١٨٧٠ ، ومع شعور الفرنسيين بالاهانة من جراء الهزيمة كان شغل دوركايم الشاغل هو اعادة بناء المجتمع من خلال اعادة بناء التماسك الأخلاقى فيه . ومن هنا كان اهتمام دوركايم بالنظام العام القائم على التضامن بنوعيه والذى يستمد استقراره من سلطة الضمير الجمعى .

ولكن لماذا سلك دوركايم هذا الطريق ؟ تستدعى الاجابة على هـــذا السؤال أن نعرض للاتجاهات الفكرية السائدة والتى تحاور معها دوركايم فقد تشكل فكره من خلال هذا الحوار الى جانب تأثره بظروف المجتمع الذى يعيش فيه . تحاور دوركايم مع ثلاثة اتجاهات فكرية : الفكر النفعى الفردى لهربرت سبنسر والفكر الاشـــتراكى ، ثم الفلســـفة الوضـــعية (واطارها المحافظ) .

اتضح منذ البداية معاداة دوركايم للنزعة الفردية ، بحيث يذهب روبرت نيسبت الى أن دوركايم يشترك مع فرويد فى تحمل جزء كبير من المسئولية عن تحويل الفكر من التركيز على الارادة والاختيار والوعى الفردى ، الى التركيز على الجوانب غير الاختيارية وغير العقلية . بل ان رد فعل دوركايم تجاه المذهب العقلى كان أكثر ثورية من فرويـــد من حيث أن الفرد ظل هو بؤرة الاهتمام الرئيسية فى تحليلات فرويد النفسية ، أما دوركايم فانه ركز على الظروف الاجتماعية الخارجية كمصدر للدافع والفكر والسلوك . فما نهتم به عند دراسة الطبيعة الانسانية ، فى نظر دوركايم ، هو مجموعة من الحقائق تنبع أساسا من اسبقية المجتمع على الفرد ، ومن قدرة هذا المجتمع على ان يضع مجموعة من الميكانيزمات القهرية تضبط سلوك الأفراد داخله (٦١) . من هنا تظهر معاداة دوركايم للفكر الفردى ، وطبيعى أن يعادى دوركايم هذا الفكر ما دام بؤرة اهتمامة (أى دوركايم) الرئيسية هى النظام العام ، فهو يخاف

---

(٦١) R. Nisbet, Tradition and Revolt, op. cit., p. 86.

أن تقضى المنفعة الفردية والتنافس على وجود هذا النظام على ما يذهب الفن جولدنر (٦٢) .

وتتضح معاداة دوركايم للفكر النفعى الفردى أيضا فى رفضه لنظرية العقد الاجتماعى المرتبطة بهـذا الفكر والتى اكد عليهـا هربرت سبنسر ، وجوهر هذه النظرية هو علاقة التبادل الاقتصـادى التى تحسمها حسابات العرض والطلب بين الأطراف الداخلة فى التعاقد . وتحتوى هذه العلاقات بطريقة ضمنية على فكرة مؤداها أن الفائدة المتبادلة للأطراف الداخلين فى التعاقد هى التى تشكل القوة الرابطة التى تحفظ التماسك داخل النسق . ولكن دوركايم ذهب الى أن هذه النظرية حينما حصرت نفسها داخل علاقة التبادل الاقتصادى أهملت مجموعة من القواعد لاتعتبر جزءا من الاتفاق ، ولكنها موجودة قبل وجود هذا الاتفاق ويجب أن تؤثر فيه . انها قواعد قائمة ومعترف بها من الناحية الاجتماعية . واذا ما اراد طرفان أن يبرما عقدا فلابد أن يكون فى ضوء الشروط التى تقررها هذه القواعد والحقوق والواجبات التى تفرضها . وهذه القواعد مدعمة — فى نظر دوركايم — بمجموعة كبيرة من القواعد العرفية ، والاصطلاحات التجارية ، وهى قواعد لها الزام القانون بالرغم من عدم تنفيذها فى المحاكم . هذا فضلا عن أن الاتفاق التعـاقدى بالمفهوم الفردى يجعل الأفراد مرتبطين من أجل هدف محدود ، ولوقت محدد . وعوضا عن ذلك ينظر دوركايم الى العقد نظرة مجتمعية عامة ، من خلاله يتحقق النظام العام ، وبدونه يصبح الناس فى حالة حرب . فتحقيق المصالح المتعددة للافراد من خلال التعاقد هو الذى يقلل من حدة العداء الكامن بين الأفراد ويؤدى ذلك الى فائدة متبادلة وسلام متبادل . فقد فشل سبنسر وغيره فى أن يفسروا كيف يتحقق هذا السلام ، والفرق بينهم وبين دوركايم يكمن فى حقيقة امبيريقية ركز عليها دوركايم مؤداها أن مركب الفعـل الذى يحقق من خلاله الأفراد مصالحهم يتم داخل اطار من القواعد ، تعتبر مستقلة عن دوافع الأفراد الفعليـة أو دوافـع الأطراف الداخلين فى التعاقد . انها الجوانب غير التعاقدية فى العقد الاجتماعى . وهى حقيقة لم يدركها اصحاب

---

(٦٢) A. Gouldner, The Coming Crisis.., op. cit., p. 122

النزعة الفردية على الاطلاق(٦٢) . وهنا يمكن الحل الدوركايمى لمشكلة النظام الذى يقوم على قهر القيم المعايير بدلا من قهر الدولة للعلاقات النفعية وتنظيمها لها على ماذهب هوبز .

واذا كان جنوح دوركايم الى النظام قد دفعه الى رفض الفكر الفردى ، فقد دفعه نفس السبب الى رفض الاشتراكية . لقد بدأ اهتمام دوركايم بالاشتراكية منذ عام ١٨٨٣ ، نفس الفترة التى اعد فيها خطة كتابة عن تقسيم العمل . ولكن تقدمه فى هذه الدراسة جعله ينشغل بها عن الاشتراكية الى أن بدأ يهتم بها مرة أخرى فى عام ١٨٩٥ حيث القى سلسلة من المحاضرات فى هذا الموضوع . ويذهب البعض الى أن كل اعمال دوركايم ماهى الا محاولة لاقامة نموذج للمجتمع يعارض نموذج ماركس الاشتراكى حيث حاول منذ البدايةان يبحث عن نوع من الوساطة الفكرية بين نسقين نظريين قائمين : الوضعية والماركسية من خلال تفسير منبعهما المشترك و واعنى سان سيمون . ولكنه فشل فى هذه المصالحة الأيديولوجية فطور الجانب المحافظ عند سان سيمون واهمل الجانب الراديكالى الذى طوره ماركس (٦٤) .

لم ير دوركايم فى الاشتراكية مذهبا جديدا ، بل انه اعتبرها صيحة الم لانسان يواجه بمظاهر الأنومى فى المجتمع الصناعى(٦٥) انها مثلها مثل ظواهر المجتمع يجب أن تخضع للدراسة العلمية . يجب اعتبارها حقيقة اجتماعية خارجية ، فهى وان كانت توجد فى المجتمع الا انها لاتعبر بالضرورة عن الظروف الاجتماعية التى انتجت ذلك المجتمع . بل ان عداء دوركايم للاشتراكية امتد الى نقد آراء ماركس فيما يتعلق بعلاقات الانتاج والصراع الطبقى . والنموذج الذى قدمه يؤكد اهمية التغيرات التراكمية فى مقابل التغيرات الثورية فى المشروع الماركسى . فالمجتمعات التى تقوم بها الثورات ليست هى

---

(٦٣) T. Parsons, **The Structure of Social Action**, Free Press 1949, pp. 311—316.

(٦٤) I. Zeitlen, Ideology and the Development of Sociological Theory, **op. cit.**, pp. 235—236.

(٦٥) J. Rex, Discovering Sociology, **op. cit.**, p. 60

المجتمعات التى تكشف عن قدرة أكبر على التغير ، بل العكس هو الصحيح تماما . لأنه فى أغلب هذه المجتمعات تظل التقاليد الأساسية دون تغيير ، كما أن الثوريين يعطلون التغير الطبيعى من خلال الروتين البيروقراطى . أما عن الصراع الطبقى فقد اعتبره دوركايم ناتجا عن حالة المرض malaise الذى استشرى فى العالم الحديث الى جانب سوء النظام disorder الناتج عن التفكك الأخلاقى (٦٦) . ومن هنا كان تركيز دوركايم على الجوانب القيمية والأخلاقية فى تحقيق التضامن والتماسك فى المجتمع .

واذا كان اهتمام دوركايم باقامة دعائم النظام العام قد جعله يرفض التفسيرات الفردية والاشتراكية ، فان نفس السبب قد جعله يتبنى الوضعية .

٢ ــ استمرار الوضعية فى أعمال دوركايم :

ان القول بأن دوركايم قد تبنى الاتجاه الوضعى لايعنى أنه ردد آراء كونت على عواهنها . بل أنه استلهم الروح الوضعية عندما ركز على أهمية تحليل العلاقات القائمة بين النظم الاجتماعية من ناحية وبينها وبين البيئة الموجودة فيها من ناحية أخرى . وعندما جعل من نظريته محاولة لاستعادة التوازن والاستقرار بين عناصر المجتمع المتصارعة . وفى اضفاء الطابع العلمى على دراسة المجتمع من وجهة نظر محافظة الى حد بعيد . ولقد حاول دوركايم أن ينقى الوضعية ويخلصها من الشوائب الفلسفية واليوتوبية التى أضفاها عليها كونت وقد تجلى ذلك فيما يلى :

١ ــ اختفت أو ضعفت النزعة التطورية فى أعمال دوركايم ، وظهر اهتمام بالدراسات المقارنة تلك التى اتضحت بجلاء فى دراسة دوركايم لتقسيم العمل والانتحار والدين (٦٧) .

---

(٦٦) A. Giddens, **Capitalism and Modern Social Theory**, op. cit, pp. 202—204

(٦٧) A. Gouldner, The coming Crisis of Western Sociology, op. cit, p. 119

٢ ـ معارضة النزعة التنبؤية اليوتوبية حيث ذهب دوركايم الى أن العلم لم يصل بعد الى مرحلة من النضج بحيث يمكن أن يتنبأ بالمستقبل . فاذا كان كونت قد رفع شعار النظام والتقدم فان دوركايم لم يعر اهمية للتقدم وركز على النظام . وبهذا يكون دوركايم قد أجهض النظرة التطورية للوضعية وقلب مفهومها عن الماضى رأسا على عقب (٦٨) .

٣ ـ اضفى دوركايم طابع العلمانية على العلم . فاذا كان كونت وسان سيمون قد ربطا علم الاجتماع بالدين الى درجة أنهما اعتبراه ديانة جديدة للانسانية ، فان دوركايم عالج الدين كظاهرة اجتماعية مثل كل ظواهر المجتمع (٦٩) .

٤ ـ نحا دركايم بالوضعية منحى علميا . فبذل قصارى جهده لتحديد موضوع ومنهج علم الاجتماع . فمن حيث الموضوع حدد خصائص الظاهرة الاجتماعية ومن حيث المنهج ركز دوركايم على الموضوعية والعلمية فى دراسة الظواهر الاجتماعية الى درجة انه ذهب الى أننا يجب أن نعتبرها « اشياء » خارجية منفصلة عن شعورنا الذاتى ، وأنه يجب على الباحث أن يتحرر من كل فكرة سابقة عن الظاهرة كى لايقع فى اسر افكاره الخاصة (٧٠) . وقد دفعت نزعة دوركايم العلمية المفرطة البعض الى القول بأن العامل الحاسم فى تميز علم الاجتماع الدوركيمى على ماسبقه ، وكل من عاصره ، هو انه فهم على أنه منهج أولا وقبل كل شىء ، منهج لاستخلاص الوقائع الاجتماعية من تنوع الظواهر الدائم(٧١) .

---

(٦٨) Ibid,. p. 134.

(٦٩) Ibid., p. 134.

(٧٠) مصطفى الخشاب ، **علم الاجتماع ومدارسه** ، الكتاب الثالث ، المدارس الاجتماعية المعاصرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٦ ص ٩ ـ ١٠ وانظر كذلك دوركايم ، **قواعد المنهج فى علم الاجتماع** ، ترجمة محمود قاسم ومراجعة السيد بدوى ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية .

(٧١) علياء شكرى ، **علم الاجتماع الفرنسى المعاصر** السابق الاشارة اليه ، ص ٣١٠ .

وما يهمنى الآن هو أن أحاول استقصاء مظاهر استمرارية الوضعية فى اعمال دوركايم لنؤكد قضية أساسية مؤداها أنه برغم النزعة العلمية المفرطة التى تميزت بها اعمال دركايم ، فان القضية الأساسية التى شـــغلته منذ البداية هى : كيف يكون المجتمع ممكنا ؟ فى كلمة واحدة يمكن أن نحصر اجابة دوركايم على هذا السؤال : النظام . فكل نظريات دوركايم تسعى لأن توضح مظاهر تحقيق النظام ، والبحث عن انماط جديدة من التفاعل ومشاعر التضامن داخله ، والميكانيزمات التى تفرض النظام عندما تتحقق أعلى درجـــة من التضامن داخل المجتمع ، وأعنى التضامن العضوى .

فمنذ كتابه الأول عن « تقسيم العمل » وقضية الوحدة الاجتماعية او التضامن هى شغله الشاغل . وتقسيم العمل هو القضية التى قدمها دوركايم لمواجهة الصراع الناتج عن التنافس وزيادة كثافة السكان . وهو بذلك يكون قد احال مشكلة الصراع الى مشكلة تباين فى الأدوار يؤدى الى التضامن . فالوظيفة الأساسية التى يقوم بها تقسيم العمل هو تحقيق التضامن فى المجتمع او تحقيق التكامل أو استعادته (٧٢) . يقول دوركايم : « ان وظيفة تقسيم العمل الحقيقية هى أن يخلق احساسا بالتضامن بين شخصين أو أكثر وهدفه ينحصر فى خلق التماسك بين الأصدقاء وان يطبعهم بطابعة » (٧٣) . فتقسيم العمل لا يؤدى الى التفكك وصراع المصالح ولا يكشف عن مظاهر عـــدم المساواة كما ذهب الماركسيون ، ولكنه يؤدى الى الوحدة والتضامن (٧٤) . ولكن هل التضامن مرتهن بتقسيم العمل فقط ، أى انه لايوجد فى المجتمع الذى لايعرف شكلا من أشكال تقسيم العمل ؟ الاجابة بالنفى بطبيعة الحـــال . فالتضامن قائم فى المجتمع سواء عرف تقسيم العمل أم لم يعرفه . الاختلاف يكمن فى نوعية التضامن . ففى المجتمعات البسيطة التى لاتعرف تقسيم العمل يكون التضامن آليا يستمد قوته من الضمير الجمعى والقانون القهرى .

---

(٧٢) P. Cohen, Modern Social Theory, op. cit., p. 35

(٧٣) E. Durklien, The Division of Labour in Society, trans by G. Simpson, Free Press, 1964, p. 53.

(٧٤) تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، **مرجع سابق** ، ص ١٦٦ .

وعندما يزدد تعقد المجتمع ودرجة اللاتجانس فيه ، يظهر نوع أعلى من التضامن قائم على تقسيم العمل والتخصص ، وأعنى التضامن العضوى . وهو يستمد وجوده من القانون التعويضى الذى يحل محل القانون القهرى فى مجتمع التضامن العضوى .

ويعد مفهوم الضمير الجمعى مفهوما أساسيا فى فكر دوركايم . فمنه يستمد المجتمع وحدته وتضامنه . ولقد ذهب دوركايم فى كتابه « تقسيم العمل » الى أن الضمير الجمعى يتألف من التصورات والعواطف الشائعة بين الأفراد الذين يكونون غالبية أعضاء الجماعة . أما فى كتابه « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » فقد ذهب الى أن الضمير الجمعى يمارس على الأفراد ضغطا بحيث يخلق بينهم تماثلا عقليا وعاطفيا . واذا كان دوركايم قد ركز على اهمية الضمير الجمعى فى مجتمع التضامن الآلى فانه لم يهمل دوره فى مجتمع التضامن العضوى . فالتعاقد الذى هو أساس التضامن العضوى « لايستمد قوته من ذاته فحسب ، وانما هو محصلة نوع من التنظيم القانونى والعرفى . وهذا التنظيم اجتماعى فى أساسه » (٧٥) . جوهرة التصورات الجمعية التى تنشأ من تفاعل الأفراد .

يؤكد لنا ماسبق أن دوركايم يحاول أن يبرز الجوانب التعاونية فى النسق الاجتماعى على حساب الجوانب الأخرى . لقد جرد مفهوم تقسيم العمل من كل علاقات السيطرة والصراع ، وأكثر من هذا لقد حاول أن يرد الصراع الى الأشكال البائولوجية لتقسيم العمل ، وأعنى تقسيم العمل الأنومى وتقسيم العمل الشاذ . وفى ذلك محاولة للرد على ماركس الذى ابرز الطابع الصراعى لتقسيم العمل فى المجتمع الرأسمالى ، حيث يفرض تقسيم العمل على العامل موقفا يتعرض فيه للاستغلال من الناحية الفيزيقية والعقلية ، الى أن تتغير علاقات الانتاج الرأسمالية . على العكس من ذلك اعتبر دوركايم عدم المساواة الناجمة عن تقسيم العمل شيئا طبيعيا لأنها قائمة على القدرات الطبيعية ، وهو لا يؤدى الى التنافس والصراع ، ولكن يؤدى الى التعاون

---

(٧٥) علياء شكرى ، علم الاجتماع الفرنسى المعاصر ، **مرجع سابق** ص ٦٠ .

والتضامن . والأشكال الشاذة والآنومية منه فقط هى التى يمكن أن تولد الصراع .

ولقد كانت كل دراسات دوركايم التالية لكتاب تقسيم العمل محاولة لابراز بعض العوامل التى تدعم قضية التضـــامن وقضية الضـــمير الجمعى التى أثارهما فى كتابه تقسيم العمل :

١ ــ فى دراسته عن قواعد المنهج فى علم الاجتماع قدم تصورا جديدا للضمير الجمعى حيث ذهب الى أن هـــذا الضـــمير يخلق ضربا من ضروب التماثل العقلى والعاطفى بين الأفراد . واهتم دوركايم فى هذا الكتاب بكل ما يوضح أسبقية المجتمع على الفرد وقهره له وهى قضية طورها أساسا المحافظون وأكد عليها أوجست كونت . فالمجتمع له صفة الخارجية والقوة ، وهو واقع مســـتقل Sui generis له خصـــائصه المميزة التى لا توجـــد فى أى شىء آخر والتى تختلف عن تجسيداتها الفردية . ولكل ظاهرة من ظواهر المجتمع وظيفة أساسية تساهم بها فى خلق التكامل الاجتماعى . ويبالغ البعض بالقول بأنه حتى المنهج الذى طوره دوركايم فى هذا الكتاب يكشف عن أيديولوجيته المحافظة (٧٦) . فأحد القضايا المنهجية الأساسية عنـــد دوركايم تلك القضية التى تذهب الى القول بالواقع الموضـــوعى للحقـــائق الاجتماعية . واعتبار النظام القائم موضوعيا وحقيقيـــا يعنى اهمال الميول القائمة لرفضه . فضلا عن أن هذه القضية المنهجية تبالغ فى فصـــل الحقائق الاجتمـــاعية عن ارادة الأفـــراد . فقـــد انصب تركيز دوركايم على القهر الخارجى الذى تمارسه هذه الحقائق على الأفراد دون الاهتمام بمقـــدرة الأفراد على تغيير هذه الحقائق . وتلك مسألة هامة على أى حال تثير الكثير من الجدل وبها قدر غير قليل من الصحة والمنطق . فعلى انقـــاض قضية دوركايم هذه أسس الراديكاليون المحدثون فى علم الاجتماع أغلب قضاياهم النظرية والمنهجية كما سيتضح لنا فى القسم الثانى من هذا الكتاب .

٢ ــ تعتبر دراسة دوركايم عن الانتحار محاولة للربط بين معـــدلات

---

(٧٦) Nisbet Tradition and Revolt, op. cit., p. 87.

الانتحار والفروق فى التضامن الاجتماعى بين الجماعات المختلفة . فالتضامن عنده يعد بمثابة متغير مستقل للانماط المختلفة من الفعل الإجتماعى . فاذا كان التضامن الاجتماعى ضعيفا ينتج عنه مجموعة من النتائج البائولوجية يعتبر الانتحار واحدا منها . والمعدلات المرتفعة منه يمكن أن تكون مؤشرا على نقص الاتساق العام فى المجتمع ككل أو بين جماعاته الفردية . ولقد استطاع دوركايم أن يربط بذكاء ومن خلال استخدام الاحصاء بين التباين فى معدلات الانتحار وبين درجة التضامن فى ثلاث جماعات دينية هى : الكاثوليك والبروتستنت واليهود . فالأولى أكثر تزمتا من الثانية . ويفرض التمسك بتعاليم الدين على أفرادها قدرا من التضامن ، فى الوقت الذى تترك فيه الديانة البروتستنتية للافراد قدرا من الحرية فى الممارسة الدينية ومن ثم تتعدد فيها أساليب الفكر والسلوك الدينيين وبالتالى يقل التضامن بين أعضائها . ومن الفروق بين الجماعتين فى درجة التضامن ينطلق دوركايم لتفسير الفروق فى معدلات الانتحار بينهما . فارتفاع معدلات الانتحار بين البروتستنت ناتج عن كون البروتستانتية ديانة أقل تكاملا من الكاثوليكية . أما انخفاض معدلات الانتحار بين اليهود فيرجع الى شعورهم غير العادى بالتضامن الذى خلقه بينهم ماتعرضوا له من مذلة وما تتميز به حياتهم من انعزالية (٧٧) . وخلص دوركايم الى قضايا عامة تفسر الانتحار فى علاقته بالتضامن فى الجماعات الأسرية والدينية والسياسية ردها الى قضية واحدة هى : ارتباط الانتحار ارتباطا عكسيا بدرجة التكامل فى الجماعة الاجتماعية (٧٨) .

هذا الى جانب أن الانتحار يشكل عاملا سلبيا فى خلق نوع من التكامل الاجتماعى . . ويتجلى ذلك فى الربط بين انماط محددة من الانتحار وبين اشكال بنائية محددة . فهو يميز بين ثلاثة انماط من الانتحار : الايثارى والأنومى والأنانى . الا انه يعطى الشكل الايثارى دورا هاما فى صياغة

---

(٧٧) E. Durkhien, **Sucide : A Study in Sociology, trans by** G. Simpson, The Free Press, Glencoe, 1951, pp. 156—161.

(٧٨) Ibid., pp. 208—212.

التكامل البنائى بينما يجعل الشكلين الباقيين مجرد دلالة على وجود خلل فى تنظيم البناء الاجتماعى القائم .

٣ — وفى كتابه « الصور الأولية للحياة الدينية » حاول دوركايم ان يدرس العلاقة بين الوجود الجمعى والتصـــورات الجمعية وحاول ان يبرهن على هذه العلاقة من خلال دراسة الصور الأولية للوجود الاجتمـــاعى كما يتمثل فى المجتمعات البدائية (٧٩) . فالفعل الجماعى المتمثل فى الممارسات الدينية هو الذى يخلق لدى افراد الجماعة الوعى بذاتهم ، وهو الذى يدعم الكيان الجماعى الواحد فى نفوس اولئك الأفراد . وتمثل الشعائر الدينية نوعا من التعاون الفعال ذى الآثار الايجابية . بل ان الأفكار والمشـــاعر الجماعية لايتم تواصلها الا من خلال حركات ظاهرية يؤديها الأفراد (٨٠) . فالمجتمع هو الذى يفرز الدين كتصور جمعى يكون له من السلطة الأخلاقيـــة ما للمجتمع ذاته وتتمثل الوظيفة الرئيسية للدين فى تحقيق التضامن الاجتماعى وتدعيمه والمحافظة عليه (٨١) .

---

(٧٩) Zeitlen, Ideology and the Development of Sociological Theory, op. cit., p. 276.

(٨٠) علياء شكرى ، علم الاجتماع الفرنسى المعاصر ، **مرجع سابق** ، ص ٩٧ .

(٨١) تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، **مرجع سابق** ، ص ١٧٠ — ١٧١ والدين فى نظر دوركايم هو نسق من المعتقدات والممارسات المتصلة بالأشياء المقدسة تمييزا لها عما هو علمانى .. ولقد ساوى دوركايم بين الله والمجتمع حيث يوازى الانسان البدائى بين القوة الغيبية التى يعتقد فى مقدرتها وبين قوة المجتمع ، بل ان هذه القوة الغيبية تمثل فى نظر الانسان البدائى — المجتمع ولكن بطريقة رمزية فالرموز الدينية تكتسب احترامها لأنها تمثل النظام الأخلاقى للمجتمع ، ومن ثم يجب حفظها عن الأشياء العلمانية . باختصار فان نظرية الدين عند دوركايم تفسره فى ضوء الحاجة الجمعية للتعبير عن الاحساس بالتضامن والخوف من تفكك النظام الاجتماعى .

لا نستطيع أن نعزل دراسة دوركايم للدين عن ثنائيته فى التضـــامن . اذ لاشك أن الدين يلعب دورا هاما فى مجتمع التضـــامن الآلى ، اما فى مجتمع التضامن العضوى فان الدين لايساهم وحده فى تحقيق التضامن على الوجه الأكمل . هنـــا تظهر الحاجـــة الى ميكانيزمات جديدة للضبط الاجتمـــاعى والتضامن يمكن أن نشتقها من كتابات دوركايم . اكد دوركايم على اهمية التربية الأخلاقية . فلابد من وجود قواعد أخلاقيـــة تنظم السلوك يتعلمها الأطفال من خلال التنشئة الاجتماعية . وتستهدف عملية التنشئة هـــذه تهذيب سلوك الأفراد من اجل المحافظة على النظام الاجتماعى العام ، وخلق كيان روحى للمجتمع . كما اكد دوركايم على اهمية احياء الطوائف المهنية التى تطور لنفسها أخلاقا مدنية خاصة بحيث تعيش فى وئام ودونما صراع وبحيث تندمج عقول الأفراد فى فهم متبادل ، حتى ولـــو ظلت مظاهر عدم المساواة البنائية قائمة (٨٢) . فمن الأساليب التى يمكن من خلالها حل مشكلة الصراع فى المجتمع تشكل الالتزامات الأخلاقية للجمـــاعات المهنيـــة داخل نظم ، على أن تنحصر مهمة الدولة فى التنسيق بين هذه الجماعات المهنية (٨٣) .

وفى ضوء هذا الاستعراض لأفكار دوركايم فى ضوء الظروف التاريخية والفكرية التى كتب فيها أعماله يتضح — على خلاف مايذهب جيدنجز — أن اعمال دوركايم كانت تناقض المذهب النفعى — الفردى وكذلك المذهب الاشتراكى وتجنح نحو الاتجاه المحافظ . وقد تشكل حله لمشكلة النظام من خلال هذا المنطلق ، وهو حل يركز على التضامن والالتزام بالقيم والمعايير فى علاقة تعاون بين الفرد والمجتمع ، وليس حلا مفروضا من الدولة على افراد لهم مطلق الحرية كما ذهب هوبز . وقضـــلا عن ذلك تكشـــف اعمال دوركايم عن استمرار الاتجاه الوضعى (٨٤) تبـــدى ذلك فى نزعته

---

(٨٢) Zeitlen, Ideology and the Development of Sociological Theory, op. cit., p. 252—253

(٨٣) اتخذ دوركايم موقفا ليبراليا تجاه امتداد رقابة الدولـــة واحال دورها الرقابى الى الالتزامات المهنية وهو بذلك يقترب من سبنسر .

(٨٤) ادخل على الوضعية عناصر معيارية لم يكن لها مكان فى النظريات النفعية او الوضعية .

العلمية المفرطة ــ ظواهر المجتمع اشياء على مذهب ــ التى تسببت فى احداث هوة كبيرة بين الباحث الموضوعى ومادة دراسته ، واعنى المجتمع الذى لايعدو الا أن يكون «شيئا» فى فكر دوركايم.ولقد تسببت هذه النزعة فى كل ما آلت اليه النزعة الامبيريقيـــة من مثالب واخطـــاء على ما سنرى فيما بعـــد .

رابعا : تميز تراث ماكس فيبر : وجهة نظر :

كثيرة تلك الكتابات التى عالجت نظريات ماكس فيبر ، ولكن القليل منها هى التى فهمته فى ضوء الحركة الفكرية والسياســـية التى عاشـــها وعالجت نظرياته فى اطار كلى وشامل . فاغلب الدراسات تضعه فى اطار التيار الوضعى الذى ظهر مع كونت واستمر فى اعمال دوركايم وانطلقت هذه الدراسات من حقيقة مؤداها أن آراء ماكس فيبر تعبر عن رد فعل المجتمع الراسمالى تجـــاه النظرية الماركســـية التى كشفت عن عناصر التناقض والصرع فى البناء الاجتماعى الراسمالى . ولكن لا نستطيع أن نحصر آراء ماكس فيبر فى هذه القضية البسيطة ، واعنى الحوار مع الماركسية وتفنيدها فمثل هذه المعالجة تسىء فهم افكار ماركس ، وتسى بدرجة اكبر فهم آراء ماكس فيبر (٨٥) .

ولااود هنا أن استعرض آراء فيبر بالتفصيل ، ولكن اود أن اتبنى موقفا معينا فى معالجة آراء فيبر ، بحيث لا نحصر انفسنا فى زحمة الجدل الذى دار حول تأييد قضية زايتلن الشهيرة عن « شبح كارل ماركس » الذى تحاور معه فيبر . ولست اسعى الى رفض هذه القضية ، لفلقد كان شبح كارل ماركس حاضرا دائما فى عقل ماكس فيبر ، ولكن الذى اسعى الى تاكيـــده هو أن تراث ماكس فيبر يكتسب قدرا من التميز داخل علم الاجتماع الغربى تميزا يجعلنا نضع تحفظات كثيرة على معالجته فى نفس التيار الذى سار فيه

---

(٨٥) السيد الحسينى ، اتجاهات علم الاجتماع فى فهم قضايا العالم الثالث ، مقال فى كتاب السيد الحسينى وزملائه ، **دراســـات فى التنمية الاجتماعية** ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٤ ، ص ٥٠ .

كونت ودوركايم ؛ على اساس ان ثلاثتهم كان له اتجاه محافظ . حقيقة اننا نستطيع ان نتلمس ظلال الاتجاه المحافظ فى أعمال ماكس فيبر ، ولكن ذلك لايعفينا من القول بأنه رغم هذا الاتجاه المحافظ الا أن فيبر قد تحامنحى منهجيا ونظريا يختلف عن ذلك الذى نحاه كونت ودوركايم . فلقد وضع اسسا جديدة ودعائم جديدة لعلم الاجتماع كانت وما تزال تولد الكثير من الأفكار داخل علم الاجتماع ، فى وقت أصبحت فيه آراء كونت ودوركايم محض تاريخ فى الفكر السوسيولوجى . ولكى نبرهن على ما نذهب اليه هنا لابد ان نحاول استقصاء مظاهر تميز تراث ماكس فيبر ونؤكد فى ذات الوقت على مظاهر الاتجاه المحافظ عنده .

عاش فيبر نفس الظروف التى عاشها مفكرو القرن التاسع عشر ، واعنى الظروف الاجتماعية والبنائية التى ولدتها ابنية المجتمع الاوروبى اثناء او بعد عملية التحول من المجتمع التقليدى الى المجتمع الحديث . ولم يستطع فيبر أن يتحلل من هذه الظروف . غير أن ظروف المانيا السياسية كانت أكثر استقرارا من فرنسا وذلك بسبب ما ساد فيها من نزعة قومية تزعمها بسمارك وبعض الزعماء الالمان . ولكن ذلك الاستقرار لم يبعدها عن الصراع الدائر بين المذاهب الفكرية الثلاث : المذهب المحافظ ، والمذهب الليبرالى ، والمذهب الراديكالى(٨٦) . ولكن الفكر الالمانى رغم تعارضه الا انه انشغل بالمسائل الفلسفية والتاريخية وذلك بسبب التأثير الذى تركه كل من هيجل وكانط . ومن القضايا الهامة التى انشغل بها المفكرون والفلاسفة الالمان محاولة التفرقة بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية او الانسانية . وهى قضية أثارتها الفلسفة الكانطية التى تؤكد وجود هوة لايمكن عبورها بين عالم المادة وعالم الروح (٨٧) . ولقد انقسم الفلاسفة ازاء هذه القضية الى فريقين و اولهما وعلى راسه ديلثى Dilthey يفصل

---

(٨٦) محمد عبد الله ابو على ، نقد المنهج عند ماكس فيبر ، مقال فى **كتاب علم الاجتماع والانثروبولوجيا** ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٥ . ص ١٦٨ .

(٨٧) تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، **مرجع سابق** ، ص ٢٥٣ .

بين العلوم الاجتماعية والعلوم الثقافية على أساس الاختلاف فى الموضوع (الوقائع فى مقابل المعانى) ، والمنهج (التفسير فى مقابل الفهم) ، وثانيهما ويتزعمه ريكرت Rickert يرى أن العلم سواء كان طبيعيا أم ثقافيا بهدف الى تفسير الظواهر ، والتفرقة يجب ان تقام بين العلم والتاريخ . ولقد حاول فيبر التوفيق بين الاتجاهين عندما وافق ديلثى على أن المعانى والقيم هى موضوع علم الاجتماع ، وعندما وافق ريكرت فى النظر الى العلم باعتباره علما بغض النظر عما اذا كان يدرس ظواهر ثقافية أم ظواهر طبيعية (٨٨) . أى أن عملية الفهم يمكن أن تقابل القوانين العامة للاتجاه العلمى . واعتقد فيبر أنه يمكن توضيح هذا فى حالة الفعل الفردى ثم فى الحالة الاكثر تعقيدا الخاصة بفهم العلاقات الاجتماعية والبناء الاجتماعى .

من هنا يبدأ تميز تراث ماكس فيبر . ونقرر هنا بداءة أن ماكس فيبر ؛ اذا كان قد تحاور مع كارل ماركس ، فانه قد تحاور وبنفس القدر مع الوضعية خاصة أفكار دوركايم . فاذا كان حواره مع ماركس هو الذى يضمه الى التيار الذى سارت فيه الوضعية ، فان حواره مع الوضعية نفسها يميز تراثه ويطبعه بطابع خاص . فنظرياته تمثل وجها ثالثا لعلم الاجتماع فى القرن التاسع عشر ، اذا اعتبرنا نظريات كونت ودوركايم وجهه الأول ، ونظريات ماركس وجهه الثانى . فلانه تأثر تأثرا عميقا بالجو الفكرى الفلسفى والتاريخى المنتشر فى المانيا نحا فيبر منحى بنائيا تاريخيا فى دراساته فرض عليه الاعتماد على التحليل الكيفى والمقارن الى جانب اهماله لأساسيات الفلسفة الوضعية (أسبقية المجتمع على الفرد — الدور القهرى للقيم — الترابط يكون فيبر قد سار فى خط مغاير للخط الذى سارت فيه الوضعية وبذلك يكون فيبر قد سار فى خط مغاير للخط الذى سارت فيه الوضعية

---

(٨٨) السيد الحسينى ومحمد على محمد ، « ماكس فيبر » ، مقال **بالمجلة الاجتماعية القومية** ، المجلد الرابع ، العدد الثانى ، مايو ١٩٦٧ . ص ١٠٩ — ١١٠ . وتجدر الاشارة الى أن ذلك يعارض ماذهب اليه دوركايم من أن العلوم الطبيعية تشبه فى منهجها وموضوعها العلوم الاجتماعية .

ويتأكد لدينا هذا الاعتقاد عندما نستعرض جانبا من آراء فيبر ونضعها فى مقابل آراء كونت ودوركايم (٨٩) .

١ — حاول دوركايم أن يتخلص من النزعة التطورية ولكنه وقع فى براثنها عندما ذهب الى أن شكلا معينا من أشكال المجتمعات ينبثق عن شكل آخر قديم قديم نتيجة حدوث تغيرات بنائية وكمية (التضامن الآلى والتضامن العضوى) ولقد اختفت هذه النزعة التطورية كلية فى أعمال ماكس فيبر . فقد كان شغله الشاغل اقامة نماذج مثالية لأنماط الفعل (الفعل الرشيد — الفعل الذى توجهه القيم — الفعل التقليدى — الفعل العاطفى) وذلك فى محاولة لاستكشاف بناء المجتمع الرأسمالى وما يسود فيه من مظاهر للسلوك ، وما يرتبط به من تنظيمات للسلطة والبيروقراطية(٩٠) . فاذا كانت نظريات كل من كونت ودوركايم تقدم رؤية لتنظيم مجتمع أصابه التفكك بالفعل ، فان نظريات ماكس فيبر ما هى الا تشريح لمجتمع قائم . وقد دفعت محاولة تنظيم المجتمع كلا من كونت ودوركايم الى الانحياز نحو النزعة التقليدية الرومانسية فظهر حنينهما واضحا لمجتمع العصور الوسطى ، على العكس من ذلك تعتبر دراسات ماكس فيبر دراسات فى التحديث . فقد صور بناء المجتمع الرأسمالى الذى يحقق قدرا كبيرا من الترشيد فى الانتاج والسلوك ولكنه لا يزال يصارع أبنية عاطفية وتقليدية قديمة يحاول أن ينفض يديه منها .

---

(٨٩) نحن نؤكد هنا على موقف فيبر الجدلى من الوضعية لأن ذلك سوف يخدم هدف البحث . فالاتجاهات النقدية الحديثة — التى سنعرض لها فى القسم الثانى من هذا البحث قد دخلت فى حوار عميق مع الوضعية وعادتها معاداة شديدة ، ومن ثم وجدت فى أعمال فيبر مجالا خصبا لتطوير نظرية علم الاجتماع .

(٩٠) عن انماط الفعل ، والسلطة والبيروقراطية انظر :

Max Weber, The Theory of Social and Economic Organization, trans by Henderson and Parsons, The Free Press, N.Y., 1949, pp. 115—118 and pp. 324—391.

٢ ــ تكشف دراسات فيبر عن غناء المضمون التاريخى الى جانب الاهتمام بفهم المعنى الذاتى لأفعال الأفراد كمنهج اساسى للعلوم الاجتماعية فعلم الاجتماع هو العلم الذى يحاول أن يدرس الفهم التأويلى للفعل الاجتماعى من أجل الوصول الى تفسير علمى لمجراه وآثاره . ويشتمل الفعل الاجتماعى على كل مظاهر السلوك الانسانى طالما يضفى عليها الأفراد معنى ذاتيا (٩١) . فاذا وضعنا ذلك فى مقابل اعتبار الظواهر « كأشياء » فى المفهوم الدوركايمى ، لاتضح لنا كيف يفصل دوركايم بين الذات والموضوع فصلا ، بين الباحث الفرد ومادة دراسته التى يعد جزءا منها . ولاتضح لنا ايضا كيف ابتعد فيبر عن هذه القضية الدوركايمية عندما ركز على الفهم التأويلى للمعنى الذاتى للافعال الاجتماعية ، وهذا الفهم يجعل الباحث الصق بالأفراد مادة دراسته ، اقدر على أن يحقق من دراستهم قدرا من الفهم الواقعى لهم . ويحيلنا هذا الى موضوع الكم والكيف فى التحليل السوسيولوجى . يتضح من أعمال فيبر عدم اهتمامه بالدراسة الكمية ، وتركيزه على تقديم مادة ذات مضمون تاريخى ثرى . فقد كان فيبر يعتقد ــ على عكس دوركايم ــ انه يجب أن تكون الاستفادة من الأرقام فى أضيق الحدود اذا أردنا فهم الواقع فهما صحيحا (٩٢) . فى الوقت الذى اعتمد فيه دوركايم اعتمادا كليا على الاحصاءات الجنائية فى دراسته عن الانتحار . ولقد استعاض عن الأسلوب الاحصائى الكمى بأسلوب صياغة الأنماط المثالية الكيفى ، فهى (الأنماط المثالية) أداة استرشادية تحقق مزيدا من الوضوح فى الفهم (٩٣) .

---

(٩١) Ibid., p. 88

(٩٢) Ephrain Fishaff, «The Protestant Ethics and the Spirit of Capitalism : The History of a Controversy», Social Research, Vol. 11, 1944. A Foot note, p. 70

(٩٣) حول استخدام الأنماط فى علم الاجتماع انظر :

ــ محمد الجوهرى ، فكرة النمط فى العلوم الاجتماعية ، **مجلة الفكر** المعاصر ، العدد ٧٠ ، ديسمبر ١٩٧٠ .

ــ محمد عارف عثمان ، **المنهج فى علم الاجتماع** ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٧٢ .

٣ ــ تمثل اعمال فيبر انتقالا كبيرا فى علم الاجتماع من النظرية الوظيفية الى نظرية الفعل الاجتماعى . وهذا هو الذى يدعونا الى القول بأن الاتجاه النظرى والمنهجى الذى اسسه لايزال يشكل تيارا متميزا داخل علم الاجتماع حتى الآن . فقد رفض فيبر التحليل الوظيفى الذى يتخذ من « الكل » نقطة انطلاق فى الدراسة « ففى دراسة التجمعات الاجتماعية التى تتميز عن الكائنات العضوية ، نكون فى وضع يسمح لنا بأن نذهب الى ابعد من استكشاف العلاقات والأشكال الوظيفية . اننا هنا نستطيع أن نحقق شيئا لايمكن تحقيقه فى العلوم الطبيعية ، واعنى الفهم الذاتى لسلوك الأفراد(٩٤) » . ويدل هذا النص على رفضه للاتجاه الوظيفى . حقيقة أن اعمال ماكس فيبر تكشف عن علاقات محددة ذات معنى بين النظم وبعضها ، ولكنه لم ينظر الى المجتمع كنسق .

ويفصله رفض الوظيفية عن تيار الاتجاه الوضعى الذى اهتم بالعلاقات المتبادلة بين النظم ، واهمل مايمكن أن ينشأ بينها من صراع . حقيقة أن فيبر لم يتحدث كثيرا عن الصراع ، ولكن المتأمل لمشروعه النظرى يستطيع أن يستشف الفكرة التى مؤداها انه يفسح المجال لقدر ولو محدود من الصراع . فما يعتبر ضروريا من وجهة نظر مجموعة معينة من الأهداف والمعانى قد لايكون ضروريا من وجهة نظر مجموعة اخرى . وهنا يظهر احتمال وجود الصراع داخل المجتمع . فليس من الضرورى أن يكون المعنى الذاتى هو نفسه بالنسبة لكل الجماعات التى تتجه اتجاها متبادلا فى علاقة اجتماعية معينة ، والمعنى الذاتى لعلاقة اجتماعية معينة قد يتغير بدوره ، كأن تتحول العلاقات السياسية من التضامن الى الصراع على المصالح (٩٥) . فضلا عن ذلك فان الأفعال نفسها قد تتجه الى أن تغير عن وعى بعض العلاقات الاجتماعية أو توجه نحو منع تطورها أو استمرارها . فالدولة مثلا يمكن أن تتحطم من خلال الحرب أو الثورة (٩٦) .

---

(٩٤) Max Weber, Theory of Social and Economic Organization, op. cit., p. 103.

(٩٥) السيد الحسينى ومحمد على محمد ، ماكس فيبر ، **مرجع سابق** ص ١١٨ .

(٩٦) Max Weber, Theory of .. op. cit., p. 132

٤ ــ كان فيبر واعيا بالحقيقة التى مؤداها أن العلاقات بين النظم ليست بالضرورة علاقات علية . فانا لا أستطيع القول انه فى وجود نظام معين (أ) يجب أن يوجد النظام (ب) لأن ذلك يعتمد على علاقات المعنى المسلم بها فى الثقافة . وبناء على ذلك رفض فيبر التفسيرات الحتمية . وعندما أكد على العلاقة بين الدين وروح الرأسمالية كان يعتبر أن الدين هو أحد العوامل التى ادت الى نشأة الرأسمالية وليس هو العامل الوحيد . ويؤكد ذلك عبارته التى تقول « لست اهدف الى أن استبدل الأحادية المادية بأحادية روحية فى تفسير الثقافة والتاريخ ، فكلاهما على نفس القدر من الأهمية » (٩٧) . ولم يهمل فيبر العوامل الاقتصادية وكان يسلم بتأثيرها الى جانب العوامل الأخرى « فقد كان يدرك بوضوح أن التغيرات الاقتصادية تنتج كرد فعل للحاجات الاقتصادية ، وهى مشروطة بمجموعة كبيرة من العوامل تشمل العوامل الديمجرافية ، والجغرافية والتكنولوجية ، والمادية » (٩٨) .

والذى يؤكد لنا عدم تركيز فيبر على عامل بعينه دون العوامل الأخرى انه برغم اهتمامه بالجوانب الرشيدة فى الحياة الاجتماعية وخاصة التنظيم البيروقراطى ، فانه كان يعتبر أن هذا التنظيم ينطوى على ضرب من الأزدواجية . فاذا كان هذا التنظيم البيروقراطى يعد أكثر الأشكال التنظيمية التى ابتدعها الانسان كفاءة ، فان هذه الكفاءة تشكل أعظم تهديد لحرية الفرد والمنظمات الديمقراطية فى المجتمعات الغربية . كما ان شكل التنظيم البيروقراطى نفسه بمبط اللثام عن مظاهر لعدم المساواة بين البشر . فأساليب الالتحاق بالتنظيمات كالشهادات والامتحانات تؤدى بطبيعتها الى ظهور ضرب من التميز والتفرقة الاجتماعية . فانه برغم موضوعية القواعد البيروقراطية التى تساوى أعضاء التنظيم أمام القانون ، فان التمسك بشهادة التعليم العالى كشرط للالتحاق بالتنظيم سوف يكون ــ بطريق غير مباشرة ــ فى مصلحة أولئك الذين مكنتهم مواردهم المالية الخاصة من الانفاق

---

(٩٧) Max Weber, **Protestant Ethics and The Spirit of Capitalism**, trans by J. Parsons, Allen and Unwin, 1930

(٩٨) Ephraim Fischoff, op. cit, p. 422.

لفترة طويلة حتى يمكنهم الحصول على هذه الشهادة . وهكذا يؤدى النمو التنظيمى الى تحطيم مبدأ تكافؤ الفرص ويسهم فى ظهور نظام بلوتقراطى (٩٩)

٥ ــ ويحيلنا ذلك الى مناقشة العلاقة بين فيبر وماركس . فاذا كان ماكس فيبر قد تحاور مع ماركس فان ذلك لايعنى أنه رفض الفكر الماركسى رفضا كليا ، أو أنه لاتوجد أوجه شبه بينهما على الاطلاق . لقد كان العالمان ينتميان الى تيار فكرى واحد ، وأعنى الاتجاه التاريخى الذى سيطر على الفكر الاجتماعى الالمانى ، كما ان كليهما انشغل بموضوع واحد ، وأعنى الرأسمالية من حيث آثارها على المجتمع ككل : على بنائه الأسرى والسياسى والثقافى اى ان نظرتهما الى الرأسمالية لم تكن مقصورة على جوانبها الاقتصادية الخالصة (١٠٠) .

لقد أدرك ماكس فيبر الفائدة الكبرى للمنهج المادى او للمادية التاريخية كأداة استرشادية خاصة فى التحليل الوظيفى ، والذى رفضه هو الادعاء بأن هذا المنهج هو المنهج الوحيد فى العلوم الاجتماعية ، الى جانب رفضه للأحادية النظرية التى تذهب الى أن الاقتصاد يشكل كل بناء المجتمع (١٠١) .

واذا حاولنا اعادة النظر فيما قدمه ماكس فيبر وكارل ماركس حول روح الرأسمالية لاحظنا على الفور وجوه شبه كبيرة . فقد كتب فيبر عن روح الرأسمالية يقول « تسيطر على الانسان نزعة جمع المال والاقتناء بوصفهما هدفين واساسيين للحياة . فالانجاز الاقتصادى لم يعد بالنسبة للانسان وسيلة لاشباع حاجاته المادية . ولقد كانت هذه الفكرة بمثابة المبدأ الموجه للرأسمالية » . ولو حاولنا قراءة الكتابات الأولى لماركس لاحظنا ان الثقافة الرأسمالية فى هذه الكتابات تشبه تلك التى عرض لها فيبر الى حد كبير .

---

(٩٩) السيد الحسينى ، **النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم** ؛ دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص ٥١ ــ ٥٢ .

(١٠٠) السيد الحسينى ، اتجاهات علم الاجتماع فى فهم قضايا العالم الثالث ، **مرجع سابق** ، ص ٢٩ ــ ٣٠ .

(١٠١) Ephraim Fishoff, op. cit., p. 419.

وقد رأينا كيف أن ماكس فيبر لم يهمل دور العوامل المادية التى ركز عليها ماركس ، وبنفس الطريقة لم يهمل ماركس العوامل الفكرية التى ركز عليها ماكس فيبر (١٠٢) .

كل هذه الأمور تكشف عن التميز الذى يمكن أن تتصف به آراء ماكس فيبر . تميز يبعده عن التيار الوضعى ويجنح به بعيدا عن النزعة الكمية الامبيريقية ، وهذا هو السبب الذى جعل الراديكاليين المحدثين فى علم الاجتماع يلجأون الى أعمال فيبر ويطورون بعض القضايا التى توصل اليها .

غير ان هذا التميز لايعفى فيبر من الانشغال بمشكلة النظام ، وان كان هذا الانشغال ليس بحدة وصرامة انشغال دوركايم أو كونت بها . فقد كان فيبر مندمجا اندماجا تعاطفيا مع ظروف بلده ، وخلال حياته كباحث ظل عضوا فى جمعية السياسة الاجتماعية والتى اهتمت بالأمور السياسية والاجتماعية العملية . ولقد ظل خلال حياته مشاركا نشيطا فى سياسة المانيا بل انه حاول فى سنواته الأخيرة أن يدرس سبب هزيمة المانيا فى الحرب الأولى وان يجد قاعدة ثابتة فى المستقبل لمجتمع المانى مستقر (١٠٣) .

ويذهب جون ركس الى أن ماكس فيبر — برغم تميز تراثه — اهتم اهتماما بالغا بعملية الصراع بين القديم والجديد فى المجتمع الرأسمالى . الصراع بين النسق الاقطاعى القديم والنسق الرأسمالى الرشيد . ولم يكن ماكس فيبر — كما رأينا — مؤيدا لذلك التقدم الرشيد . فأخلاق الرأسمالية قائمة على الأفراط فى الربح . ولقد صعق ماكس فيبر من النمو الرهيب للبيروقراطية الروتينية التى سيطرت على النظم الرئيسية فى المجتمع ، الى درجة أنها خلقت حالة من الموت فى المجتمع بحيث لم يعد هناك مكان للقوى الكارزمية والمبدعة . ونظرة فيبر هذه الى المجتمع الرأسمالى واهتمامه

---

(١٠٢) السيد الحسينى ، اتجاهات علم الاجتماع ، **مرجع سابق** ، ص ٤٨ — ٤٩ .
وتجدر الاشارة الى أن ماركس قد أكد على الجوانب القهرية للرأسمالية وأولى اهتماما أكبر للدور الأيديولوجى الذى تلعبه ثقافة المجتمع الرأسمالى.

(١٠٣) Rex, Discovering.. op. cit., p. 125

بجوانبه الرشيدة وغير الرشيدة يدلّ على انه واجه نفس مشكلة هوبز الشهيرة : ما هى الضمانات التى يجب اتخاذها لكى لا تتحول السوق — التى تميز المجتمعات الرأسمالية الحديثة — الى حرب الكل ضد الكل (١٠٤) فقد كان فيبر يخاف من أن يؤدى امتداد الرأسمالية بما فيها من ترشيد وبيروقراطية الى ان تفقد الحياة العناصر التى تجعلها جديرة بأن تعاش ، واعنى الاختيار الفردى ، والوعى بالمسئولية ، وحرية الفعل ، والثقة (١٠٥) .

والمتأمل لكتابات فيبر يستطيع أن يستشف منها مجموعة من العناصر التى يمكن أن تحافظ على المجتمع الرأسمالى ازاء هذا المد البيروقراطى . من ذلك مثلا ابراز دور الدين والعناصر التقليدية للفعل الاجتماعى ، والاهتمام بالسلطة القانونية ودورها فى تحقيق النظام الاجتماعى العام .

---

(١٠٤) J. Rex, Discovering Sociology, op. cit., p. 50

(١٠٥) Raymond Aron, Main Currents in Sociological Taught, Part Two, Penguin Books, 1967, p. 14